ظلال الخذلان

روايـــة

الطبعـة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: ظلال الخذلان

اســـم المـؤلف: آمنة برواضي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 20082 / 2020

الترقيـــم الدولي: 0 - 82 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ظلال الخذلان

رواية

آمنة برواضي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حلمك

إهداء

إلى والدي الغالي أطال الله عمره

وبارك في صحته

كبرياء وعز وسخاء

أهدي روايتي

مع خالص مودتي

ابنتك أمنة

****

جلس الحاج عبد الله تحت ظل الشجرة الكبيرة، ينبش بعصاه على الأرض التي ظلت وحدها شاهدة على الأحداث التي مرت بها المنطقة، بعدما استبدلت جُلّ الأشجار؛ إما بتغيير نوع الفاكهة، أو لتجزئ حصل في الأرض، أو لبناء سور لسياج أرض لشخص دون غيره.

كانت الشجرة الوحيدة التي قاومت عوامل التعرية الطبيعة منها والبشرية، ولم تجرؤ يد أي منهم على قطعها؛ لأنها في منطقة ليست في ملك لشخص معين، المكان استعمل منذ القديم كمعبر للدواب والسكان على حد سواء، وظلت بدورها حارسة أمينة للقرية وتحت أغصانها الوارفة الظلال التي تصل عنان السماء رويت حكايات، وفُكَّتْ نزاعات وباح الكثيرون بما يثقل صدورهم من هموم المكان والناس، كانت سجل المنطقة، ومكان تقاضي الكثيرين كما كان يحلو للأغلبية أن تروي أسرارها فيه بكل صدق وعفوية.

ترى هل الشجر يحس بما يدور أسفله من أحداث لذلك كانت تمدهم بظلالها بكل سخاء، وتربتها الطيبة تغذي عروقها لتستمر الحياة داخل غصونها، وتستمر أوراقها في التجدد دون عناء ولا جهد؟

كلما شق على الحاج عبد الله حال المنطقة حمل نفسه وجاء متكئاً على عصاه التي اعتاد أن يستعملها لا لنقص في إحدى رجليه، ولا لشيخوخته التي طرقت أبوابه قريباً، ولا اختار الاتكاء عليها لتساعده على إكمال طريقه، وإنما هي عادة لزمته من شبابه حين كان يستعملها اقتداء بجده

تضفي عليه هيبة، ولأسباب أخرى كان يعلمها جيداً؛ قد يحتاجها للدفاع عن نفسه من معتدٍ يعترض سبيله، وقد يستعملها في التهديد على شخص اعتدى على أملاكه أو تسلق إحدى أشجار التين أو اللوز اللذين كانت المنطقة تزخر بهما قبل أن يحلَّ بها ما حلّ من تقسيم وظلم وجور.

كان المكان تحت الشجرة يشده كما الحنين إلى الأيام الخوالي؛ يجلس ويستمتع بخرير مياه العين التي لم تسلم بدورها من التقسيم الذي عرفته الأرض غير أن تقسيم العين كان بشكل آخر لأنهم لم يصلوا إلى طريقة تغير مجرى الماء، والماء له نبع يخرج منه ويشق طريقه من أعلى الجبل المطل على المنطقة، وينهمر شلالاً ليروي الأرض منذ آلاف السنين، ألا يقال أن الماء يعرف طريقه؟

هذا ما كان يقع كلما حفروا قناة من أجل تقسيم الماء بين منطقتين كانتا في الأصل لرجل واحد، لكن الماء يأبى أن يستجيب للتقسيم، وفي كل مرة يعود إلى مكانه الأول بعدما يدمر الطريق الثاني، إما بسبب وفرة المياه بعد تساقطات كثيفة تعرفها الجبال والمناطق المجاورة الأشد ارتفاعاً، وإما بسبب الثلوج التي ما إن تبدأ عملية الذوبان حتى تجد ما بنته يد الإنسان قد انهار أمام قدرة الخالق الجبار.

يجلس الحاج عبد الله يستمتع بصوت خرير المياه؛ وكأنه يسرد على مسامعه محنة المنطقة بعد عزها وهيبتها وتغريد العصافير التي لا تتوقف عن التحليق في الأعلى، وأصوات أخرى لباقي الطيور سيمفونية الطبيعة بألحان

شجية عذبة، يسافر بين نغماتها يرحل في تفاصيل الماضي مرة إلى جوار جده ومرة رفقة إخوته يصطاد العصافير حينا مستخدماً تلك الدودة طعماً، ومرة متسلقاً شجرة الصبار بحثاً عن العسل في أعلى قمتها، ومرة بين أغصان شجرة التين، يأكل وينعم بطراوة المكان، وهو يدندن بإحدى أغاني الصبا لا يخرس صوته إلا عند سماعه لاقتراب خطوات جده الذي كان يخاف على أغصان شجرة التين أكثر من خوفه على سلامة الأحفاد الذين يتواجدون بين أغصانها، كان يكرر على مسامعهم باستمرار جملته المأثورة عنه: "أفضل شيء أن نجني التين ويُأْكَلُ جماعة، بعدما يغسل بماء العين البارد" ولكن ماذا والصغار يحبون العصيان ويعشقون الشغب.

كان يبتسم، وهو يتذكر صوت جده يخاطبهم بأعلى صوته: إني أراكم من مكاني هذا، هيّا انزلوا من أعلى الشجرة.

وبعدما ينزل الصغار، يتبين لهم أنه لم يكن قد رآهم، وإنما كان يتوقع ذلك فحسب؛ ما داموا غير موجودين إلى جواره فيكون عارفاً بوجودهم في الأعلى.

استمر في سفره في ذكريات الصبا حيناً، وفي أشياء أخرى تشغل باله حيناً آخر، ولا أحد يعكر عليه صفو خلوته، وبين الحين والآخر تتساقط إحدى الأوراق الجافة تتلاعب بها نسمات الهواء قليلاً قبل أن تستقر إلى الجوار. يرفع بعدها رأسه إلى الأعلى في محاولة منه لرؤية الفراغ الذي تركته، يتأمل جيداً مكان سقوطها فلا يكاد يتبينه، هناك أماكن كثيرة أصبحت

فارغة، وهناك أماكن أخرى تعرف نمو أوراق صغيرة حالها يشبه كثيراً حال الإنسان في هذه الحياة ينتهي أجل إنسان وتسقط ورقته كما يقال ليوارى بعدها الثرى، ويولد آخر في مكان من هذه الأرض لتعمر الأرض من جديد، الحياة في تجدد مستمر. لكن الأمر يختلف، الأشجار دائماً تقدم لنا نفس الغلة إلا إذا امتدت إليها يد الإنسان وعملت على تطعيمها بنوع آخر، أو كانت الطبيعة قاسية معها ولم تسقها من مياهها فتبخل في عطائها، أو حين تهب عليها رياح عاتية وتسقط كل ثمارها قبل الأوان أو حين يتساقط البرد ويؤدي ثمارها أو...

لكن الإنسان تجده يتغير باستمرار إلى الأسوأ إلا القليل؛ فكما أقبل جيل جديد إلا وحلّ بأفكار تساير عصره لكنها تحمل في عمقها الضياع والخراب للثقافة والقيم التي كانت قبله، ويبقى الجيل الذي سبقه يفرك يديه حسرة على الماضي الذي ولّى.

هذا حال شيخنا اليوم؛ إنه يجلس تحت الشجرة ويسترجع كل الأحداث التي مرت بها القرية، وكل الذين عرفهم ورحلوا عنه وتركوه مع حيرته يجتر تاريخ منطقةٍ

كانت بالحياة عامرة، وكان الحب يجمع بين أفرادها، يتذكر أيام طفولته يوم كانت الأرض كلها تعود إلى جدهم الأكبر، وكان البيت الكبير ـ الذي عاد إليه بالإرث من نصيب والده (مصطفى) لأنه كان الابن الذكر الوحيد مع باقي أخواته البنات رغم أن جده تزوج من ثلاث نساء رغبة منه في تعمير

أرض القرية بالأبناء، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكون الزوجة الثانية عاقراً، والثالثة تركت له أيضاً ثلاث بنات قبل أن تغادر الدنيا وهي تضع البنت الثالثة ـ بيت لا سياج له، وحديقته كانت كل الحقول المحيطة به؛ كانت العين تنطلق دون قيد ولا حاجز ولا تستطيع أن ترى كل الأرض التي كان يملكها.

****

الجد عمرو كان طيباً وصالحاً هكذا ظل الجميع يتحدث عنه، لقد عَمَّرَ طويلاً، وكان يقبض على المنطقة بيد من حديد لم يجرؤ يوماً أن يتسرب إليها غريب.

رغم كبره في السن إلا أن كلمته ظلت مسموعة من الكبير قبل الصغير، وكان مصطفى والد الحاج عبد الله اليد اليمنى لوالده يُطلعه على كل كبيرة وصغيرة، وفي حوزته عقود الأرض التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر وعقد يثبت شجرة العائلة ونسبها الذي يمتد إلى أبعد جد.

كان فخوراً بابنه، يتباهى به أمام باقي القبائل علمه ركوب الخيل باكراً رغم خوفه الدائم عليه، إلا أنه كان يريده أن يكون خليفته بعد رحيله، ويعرف كيف يقبض على زمام الأمور ولا يترك مجالاً للطامعين ليدخلوا الأرض بأي شكل من الأشكال.

زوج الحاج عمرو ابنه مصطفى في سن الثامنة عشر رغبة منه في الاطمئنان على الأرض، وكان حظ الابن أوفر من والده؛ رزق بابن ذكر اختار له اسم محمود، رزق بعدها بثان سماه عبد الله، ورزق بعد ذلك بابن ثالث اختار له اسم مختار، ثم رزق بعد ذلك بثلاث بنات؛ رقية والسعدية وراضية، وحب الجد الكبير في الأبناء جعله يتخذ من الأحفاد الثلاثة الذكور أبناء له وينزلهم منزلة خاصة من قلبه، كان يرى فيهم من سيتولى تعمير الأرض من بعده.

كان يصحبهم معه في حله وترحاله، لكن البنات نصيبها كان البيت والعمل إلى جوار والدتهم وجداتهم.

تلقى الأحفاد نصيبهم من العلم على يدا الفقيه الذي كان يأتي من منطقة بعيدة كان حافظاً لكتاب الله وعارفاً بقواعد التجويد، كان الجد يجزل له العطاء، ويخصص له نصيباً من محصول الأرض مقابل تعليم الأحفاد للقراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، كبر الأحفاد واشتغلوا بدورهم في الأرض، وأصبحت لهم حياتهم الخاصة تزوج كل من محمود والمختار من بنات القرية باستثناء عبد الله الذي تزوج من القرية المجاورة.

كما تزوجت البنتين من أبناء القرية باستثناء رقية التي تزوجت بغريب عن الأرض كانت الرياح قد حملته ليطلب العمل عند الجد في يوم من الأيام ونظراً لإخلاصه في العمل وحفظه لكتاب الله وتحفيظه لأطفال القرية وتعليمهم للقراءة والكتابة في غرفة تابعة للمسجد الصغير الذي كان قد بناه الجد من زمن بعيد، ورقية كانت وقتها قد تجاوزت الثامنة عشر فكان أن وافق أخيراً كل من الجد والوالد على تزويجها منه وتكون الوحيدة من بنات القرية التي كسرت القاعدة التي سطرتها الأعراف قبل أن يسطرها قانون القبيلة، قيل يومها كلاماً كثيراً من جملته كونه تزوجها رغبة في نصيبها من إرث والدها، وقيل أنه جاء لغرض أن يستولي على الأرض ويكيد مكيدة ما...

لكن الأيام أثبتت حسن نيته، وعاش إلى جوار رقية راعياً لها ولأبنائه منها.

لكن حدث أن بدأ هناك من يخالف نظام القبيلة حين غادر الابن محمود لفترة إلى المدينة من أجل أن يكون قريباً من أبنائه الذين يتابعون دراستهم فيها نظراً لعدم توفر المنطقة على مدارس بمواصفات أحفاد كبير المنطقة.

تغيرت أفكار هذا الابن ودخلها ما يشبه السوس وأصبح يرى في القرية مصدراً للمال فقط؛ كان يعود بين الحين والآخر ليغرف من خزائن والده التي ورثها عن الجد، وبما أنه بدوره الابن البكر لم يتصدَ له أحد من إخوته، ولم يستطِع أي واحد إيقافه عند حده، كان مصطفى على علم بجشع ابنه وحبه للثروة والمال، الابن الذي امتلأت رأسه بأفكار من المدينة التي عاش فيها لفترة من الزمن تعرف على أناس همهم السياسة والسلطة كان كلما تكلم أحدهم عن الانتخابات يفكر في اليوم الذي تؤول إليه السلطة بعد والده ليضع يده على القرية ويغرس أفكاره في أهلها.

كثيراً ما حدث محمود والده عن مشكلة السن، وأنه لم يعد قادراً على التحكم في المنطقة التي يديرها ليس عن طريق الانتخابات كما هو الحال اليوم، ولكن سلطته وقدرته على فظ النزاعات بين الأهل وسماع كلمته باعتباره كبيرهم وحامل همّ الأرض، وأيضاً لأن كل القبيلة تعود إلى نفس الجد الذي هو والده في الأصل، لكن الأب (مصطفى) كان يحوّل الموضوع

ويتظاهر أنه لم يفهم قصده. يحدثه مرة عن الطبيعة التي يتغير مناخها شيئاً فشيئاً كما يحدثه عن ضرورة غرس المزيد من الأشجار لتحل مكان تلك التي بدأت الشيخوخة تسري في عروقها؛ طبعاً الطبيعة بدورها تعرف تلك الدورة التي يعرفها الإنسان، هكذا أراد لها الله لا بد لتلك الشجرة من بداية ونمو وخصب، ثم تأتي مرحلة الشيخوخة يقل إنتاجها وتتساقط أوراقها بعد أن تجف أغصانها، وتعرف الإهمال من الجميع كما هو حال الإنسان عندما يشيخ ويقل إنتاجه أو ينعدم تكثر أمراضه وتكثر شكواه فينظر إليه كشيء لم يعد ذا قيمة، الجميع ينتظر متى يغادر هذه الحياة ليحل بعده آخر.

يحدث مصطفى ابنه عن حق كل الإخوة في الأرض بالتساوي لأنها شريعة الله، ولا يحق لأحد أن يأخذ شيئاً ليس له وإلا أكل في بطنه ناراً، كما يتكلم عن حق البنات الشرعي ويؤكد عليه. الابن يفهم بدوره إعراض والده عن الخوض في الموضوع ويفهم أن كلامه فيه نوع من التذكير بحقوق الآخر، لكن ما العمل وقد أعمى الطمع بصيرته؟

مضت الأيام مسرعة، عاد الابن (محمود) للاستقرار مجدداً في القرية، همه الوحيد هو الأرض والخلافة التي ستؤول إليه، بعد رحيل والده الذي كان أكبر عقبة في طريقه، ولم يستطِع أن يكسر كلامه حتى في آخر أيامه وهو لا يقوى على شيء، كانت نظرات والده له أكبر رادع وأكبر من أي كلام تَحولُ دون أي تصرف منه، لم يكن يريد أن يعرف الأب بما سيقدم عليه ابنه

البكر بعد رحيله، ولكن نظرات الأب كانت تفضح ما يعانيه في صمت ولا يقوى على إصلاحه بعدما كبر جشع ابنه، لم يكن يعلم أن المدينة سيكون لها كل هذا التأثير في تغيير سلوكه ونظرته للأرض وإلا ما كان سمح له يوماً بمغادرة القرية، وكان قد عمل على غرس كل حفنة من ترابها في قلبه وجعله يتعلق بها ولا يفرط في أي شبر منها مهما بلغت حاجته.

هو وحده من كان يعلم بقيمة الأرض، لقد غرس كل قطعة فيها مع والده ومشى على كل حبة تراب منها، واستنشق عبير ترابها مع أول قطرة غيث تنزل عليها ومع أول شعاع شمس يبخر ماءها، ومع أول حبة قمح تنمو في سنابلها، ومع أول فاكهة تنضج في أشجارها.

وحده يعرف قيمة ما تقدمه الأرض، وأية قيمة تصنعها للمرء، يكفيه أن يمر كل صباح بالحقول وهي تستقبل يومها الجديد والضياء ينتشر في سمائها رويداً رويداً إلى أن يعم المكان بأسره، يحس بزهو والأشجار من حوله تنمو في حركة مستمرة لتقدم العطاء بسخاء، ونبع الماء الفياض الذي لم يتوقف يوماً عن مدّ المنطقة بما تحتاجه من ماء عذب تسقي أهلها وبهائمها، وتروي أرضها دون ملل ولا كلل، وهو يستمع إلى ثغاء نعاجه التي تتجول على أطراف القرية غير عابئة بالحدود؛ لأن كل الأرض تعود لهم ولها الحق أن ترعى في المكان دون أن يصدّها أحد أو يحدها سياج أو جدار.

كان الجبل يحد المكان من الجهات الثلاث، وكان الوادي في الجهة الأخرى هما الحد الفاصل، وماذا تفعل الخرفان بتسلق الجبل بعدما تكون قد ملأت

بطونها من الأرض، وارتوت من ماء النبع تعود أدراجها إلى مكانها يرافقها بعض الكلاب ممن يملأن القرية نباحاً ليلاً، اعتادت بدورها على مرافقة القطيع.

هل حراسة الكلاب للقطيع واجبة، أم تراها تعلمت ذلك بفطنتها أم هي أشياء بالفطرة؟ هو لم يرَ يوماً والده يعلم كلباً كيف يحرس القطيع من ذئبٍ أو معتدٍ آخر، ولكنه يرى الحراسة قائمة والحياة تسير بنظام، هل الكلب يتعلم الإخلاص والواجب والعمل دون أن يطلب منه ذلك؟ وماذا عن الإنسان الذي نوجه له التعليمات من أول ما يتعلم أولى خطواته، وأول ما يتعلم النطق بكلمات لا معنى لها، ومع ذلك عليك أن تعيد كل حين على مسامعه ما تريده منه، وقد يتهاون في أول فرصة تتاح له ويعرّض ما كان منوطاً بالقيام به إلى التلف.

هكذا بعدما خلا الجو لمحمود بعد وفاة والده بدأ يتقرب من إخوته أكثر من ذي قبل؛ يحدثهم عن الحياة في المدينة، وعن الرفاهية التي يعيش عليها أهلها، وطريقتهم في التفكير وتدبير أمور الحياة كان يجد من بينهم من يحلو له الاستماع، ويرغب في تغيير حياته خاصة عندما يروا كيف تغير أسلوب كلامه وطريقة تعامله ولباسه، ومنهم من كان يعرض عنه لأن حب الأرض تغلغل في أعماقه، ولا يعرف العيش خارجها وإذا حصل وانتقل سيكون حاله كالسمك الذي غادر الماء الموت طبعاً.

كان محمود يعلم بمن يبدأ، بدأ بالأخ الأصغر(المختار) لأنه يسهل عليه التلاعب بعقله لكن المختار كان لا يزال متردداً مرة يعد أخاه ببيع نصيبه، ومرة يرفض الفكرة بحجة أنه لا يستطيع البدء من جديد وأن عروقه ستجف بمجرد مغادرة تربتها التي هي القرية، لكن محمود لم ييأس لا يزال يكرر على مسامعه كل حين نفس العرض وأحياناً يكون معه أكثر سخاء حين يخبره بإمكانية بيع نصف حصته والاحتفاظ بالنصف الآخر وبسعر أكثر تجد لعاب زوجة المختار يسيل أمام المبلغ لكن بنظرة من زوجها تعود لتصمت وهي تعض على شفتها السفلى أسفاً على الفرصة التي ضاعت منها. لم يصمد المختار طويلاً سرعان ما باع جزءاً من الأرض لمحمود الذي سيعمل فيما بعد على تقسيمها وبيعها للغريب.

وكذلك فعل مع راضية؛ لأنها كانت في حاجة لمغادرة القرية فزوجها بعد موت صهره (والدها) أحب أن يجرب حظه في التجارة خارج القرية فكان يسافر لعدة أسابيع ويعود إليها بعد ذلك، كانت تخاف أن يتزوج من المدينة زوجة ثانية ويتخلى عنها مع أبنائها في القرية، ففضلت بيع نصيبها لأخيها.

كذلك فعلت السعدية التي رضخت لرغبة أبنائها في شراء سكن بالمدينة المجاورة وظلت محتفظة بقطعة صغيرة من نصيبها قد تعود إليها في يوم من الأيام، بعدما يتزوج الأبناء تجد القطعة في انتظارها من جديد.

لم ترضخ رقية لإغراءات أخيها كانت متشبثة بالأرض ولا تقبل عنها عوضاً، حالها كحال أخيها عبد الله.

كلما سأل أحدهم الحاج عبد الله عن سر تعلقه بالمكان، يجيب دون أن يحول نظره إليه:

ـ من مكاني هذا أظل أبحث وأنقب على تلك الذكريات الجميلة البعيدة لعلّي أعثر على شيء جميل، أو ذكرى ولو كانت صغيرة تعيد البسمة إلى شفتيّ، وتدخل السرور على قلبي الذي ملأه الحزن من كثرة ما تحمل.

كان كلما تكلم انتقى كلمات تأسر السامع، ليأسر قلبه بتلك الحكايات الأثيرة التي ظل يرددها في كل مجلس عائلي أو غيره؛ يستحضر أمجاد الماضي كأنه ماثل أمامه، ويمعن في وصفه ومدح أيامه والرخاء الذي عاشته المنطقة، كل شيء في الماضي كان رائعاً بدءاً بالطقس والمطر الذي يستمر نزوله لشهور دون توقف، واجتماعهم في البيت الكبير الذي كان يتسع لهم جميعاً رغم كثرتهم لوجود الألفة والمحبة التي كانت تجمع بين أفراده، وكيف كانوا يجلسون في فصل الشتاء حول نار هادئة حيث يحلو السمر والاستماع إلى حكايات الجد عمرو التي لا تنتهي.

واليوم تجده يتذكر بحسرة المشهد الذي لا يزال يتكرر أمام عينيه باستمرار كأنه لم يمضِ عليه كل هذا الوقت، ويسرده بكل تفاصيله وما خلفه من آثار عميقة في أعماقه، يذكر حتى الطريقة التي فتح بها باب الغرفة عليه بعدما كان قد استلقى للقليل من القيلولة التي تحلو له في فصل الصيف بعدما يكون الجو حاراً واليوم ممتداً طويلاً أمامه، ويفضل أن يستلقي قليلاً ليقوم بعدها لشرب الشاي الذي يحلو له تناوله وسط ساحة البيت

الكبير ويترك بعد ذلك العائلة مجتمعة حول الشاي ليخرج لصلاة العصر وينطلق بعدها في الحقول يقلم ويشذب و...

ـ انفتح الباب محدثاً أزيزاً تردد صداه في المكان صفعته الجملة التي التقطتها مسامعه من أخيه محمود:

ـ متى تبيع نصيبك، وترحل؟

تغزوه حالة من صعوبة الإدراك، كيف بعدما كان الإخوة يداً واحدة في مواجهة أي واحد تسول نفسه الاقتراب من المنطقة، والتصدي له بشتى الوسائل، وما أصبح عليه الحال بعد رحيل الجد الأكبر والأب عن هذه الدنيا، أكان لا بد من بقائهما على قيد الحياة لتستمر العلاقة بين الإخوة والأحفاد؟!

أكان لا بد على الأب أن يحول كل ممتلكاته إلى اسم معين ويجعلها في ملكه، وباقي الإخوة يعملون تحت إمرته؟!

أكان عليه أن يسلك نظام المملكة في منطقته، ويبتعد عن شرع الله؛ ولا يأخذ كل واحد من الأبناء نصيبه بالتساوي؟

ويعود ليتساءل:

ـ الأمر لا يخلو من نوع من الفوضى، من قال أنّ الأرض وزعت حسب ما شرعه الله تعالى؟

ألم يكن محمود الأخ الأكبر صاحب نفوذ من البداية؟!

ألم يكن يأخذ الحظ الأوفر من غلة الأرض، بحجة متطلبات الحياة في المدينة؟!

ألم يكن يغدق من خيرات الأرض ومن المال الذي هو في الأصل ملك للجميع على الضيوف الذين كانوا يحضرون معه بحجة زيارة القرية والتمتع بجمال الطبيعة فيكون معهم أكثر كرماً، كل هذا لكون والده له اسم وهيبة يصل صداها إلى المناطق المجاورة؟!

ألم يكن يفعل ما يفعله ليتقدم بعد ذلك إلى الانتخابات التي أخذت الجزء الأكبر من محصول الأرض؟!

يعود عبد الله ليتساءل؛ وما شأني أنا بكل الذي حصل؟ وهل بمقدوري أن أعيد يوماً الأرض إلى ما كانت عليه سابقاً؟

وهل بإمكاني أن أزرع المحبة، والألفة بين الإخوة، بعدما نبت الشوك مكان زهور المحبة التي جفت في الأعماق وتساقطت أوراقها؟

وكيف السبيل لذلك؟

كل ما أبتغيه من الحياة؛ مستقبلاً تشرق الشمس خلاله، وتغيب دون أن تمر من سماء المنطقة سحابة تعكر صفو القلوب التي لا زالت تعمر هذه الأرض، ولكن هيهات القلوب ملأها السواد، والسماء مكتظة بالغيوم، والإخوة ما عاد شيء بمقدوره أن يألف بين قلوبهم من جديد.

وهل بإمكان الشرخ أن يلتحم ويعود كسالف العهد؟

الحاج عبد الله بقي أرملاً ما يزيد عن الست سنوات بعد رحيل زوجته، ولم تبقَ إلى جواره إلا ابنته سميرة ترعاه في شيخوخته، بعدما هاجر جميع أبنائه إلى المدينة لم يكن يريد أن يأتي بأم ثانية لأبنائه بالرغم من كونهم أسسوا حياتهم الخاصة بعيداً عنه باستثناء سميرة طبعاً.

كانت سميرة أكبر إخواتها البنات، ترفض أي عريس يتقدم إليها ظلت تقوم بجميع أعباء البيت بعد رحيل والدتها، وحلت محلها في تلبية كل حاجيات إخواتها وما يلزم البيت، لكن هناك من الأصدقاء والأهل من ظل يعيد على مسامع الحاج عبد الله باستمرار، لابد أن يأتي يوم ويتقدم العريس الذي توافق عليه سميرة وقتها سوف تجد نفسك وحيداً، ولا تجد من يقدم لك شربة ماء.

بعد تفكير طويل، وأخذ ورد فكر مرة أن يجمع أبناءه، ويطرح فكرة زواجه عليهم ويضعهم أمام الأمر الواقع، لكن هناك من أفتى عليه أن يكلم كل واحد منهم على حدة ليضمن أصواتهم بعيداً عن اتفاق في رأي الإخوة قد لا يكون في صالحه، استجاب للفكرة واغتنم فرصة ذهابه إلى المدينة واختار البدء بابنه الأكبر المهدي وبعد ذلك يمر بالباقي.

كان يعلم جيداً أنه لن يمانع لكونه منشغلاً في تجارته، وتربية أبنائه الأربعة، لكن ما إن تفوه بكلمة زواج حتى ثار في وجهه وأخبره أن الأمر يخصه بالدرجة الأولى، ولكن كيف يسمحوا لغريبة أن تحل مكان والدتهم في كل شيء والأهم من ذلك أنها ستتمتع في كل ما تركته والدتهم وبَنَتْهُ

بحسن تدبيرها، وجمعته خلال سنوات عمرها رغم حاجتها إليه لكي توفر ليوم لم تكن تعلم أنه سيكون من نصيب أخرى.

بعد حوار كان يشتد في مرات عديدة، ويعود ليأخذ سبيل النقاش بين صديقين توصل الحاج عبد الله إلى أخذ الموافقة من ابنه البكر الذي كان يعتبر الحديث معه في الموضوع سيكون من السهل بمكان، لكن المهدي رغم موافقته أخبره أنه حين تتم موافقة باقي الأطراف ستكون هناك بعض النقاط للمناقشة.

لم يجد الحاج عبد الله غير طأطأة رأسه ورسم ابتسامة الرضا، لم يكن همه وقتها سوى إكمال النِّصاب وضم أكبر عدد من الأصوات إلى صفه كما أخبره بذلك صديقه وصهره الحاج العربي الذي يثق في أفكاره.

اتجه توا إلى ابنته سعيدة التي انتقلت إلى السكن في المدينة مباشرة بعد زواجها، وبما أن زوجها موظف بإحدى الإدارات ولها أطفال صغار فإن وقتها لا يسمح لها بزيارة القرية إلا أياماً قليلة خلال إجازة زوجها، كانت سعيدة منشغلة ببناء حياتها وتربية صغارها لم تفكر يوماً في الخدمة التي يحتاجها والدها بعد غياب والدتهم ربما كانت تظن أن أختها سميرة تحل محلهم في كل شيء، وأن الأمور تسير كما أراد لها الله جيدة، المهم أن توفر سميرة لأبيها كسوة نظيفة، وتحضر له وجبات الأكل، وتنظف له المكان الذي ينام فيه.

لم يخطر ببالها يوماً التمعن في حالة أختها ومستقبلها الذي بدأ يلفه الضباب، وأن قطار الزواج تخلى عنها بمحطات كثيرة، وبدأت تدخل في خانة العوانس في مكان نادراً ما تصل البنت فيه إلى سن الثلاثين، وإن حدث ووصلت فإنها سرعان ما تتزوج بأرمل أو تغادر إلى المدينة رفقة أحد إخوتها كنوع من الهروب من نظرات الناس لها بالشفقة، وكأن الزواج هو الخير الوحيد الذي تنتظره الفتاة، لا يدركون أنه كم من زيجات يعانين الويلات من زواجهن ويتمنين آلاف المرات لو مكثنا عوانس إلى آخر العمر ولا تزوجن من أزواج يذقنهن من المهانة والذل الشيء الكثير.

كانت سعيدة تظن أختها راضية بنصيبها؛ لأن سميرة لم تشتكِ يوماً ولم يجرؤ أحد على سؤالها عن أحوالها باستثناء السؤال المعتاد، هل تريدين شيئاً من المدينة يا سميرة؟ كأن كل طلباتها ما تجود به أياديهم البيضاء من هدايا لا قيمة لها أمام احتياجاتها لتكوّن أسرتها الخاصة بها، وتدخل غمار حياة قد تزرع فيها بذوراً تنبت نباتاً حسناً، ولمَ لا؟ هناك من الرجال من يستحق أن تضحي معه المرأة، ليس كل الرجال أشراراً، كما أنه ليست كل النساء ملائكة وضحايا أنانية الرجل وتسلطه وجبروته.

وماذا ينقص سميرة كما في اعتقادهم أو كما يرددون عندما يحاولون التضليل عن الحقيقة وتغطيتها بغطاء الكذب؛ هي هناك الآمرة الناهية، لا أبناء يقلقون راحتها، ولا زوج تنتظر قدومه من العمل لتكون له خادمة

تعمل على تلبية طلباته دون ملل ولا كلل، وقد يتركها في وقت عطله ويخرج مع أصدقائه غير عابئ بما تشعر به من قهر ووحدة.

وكلما حضر أحد إخوتها إلى القرية يعود محملاً بالهدايا لسميرة، أهذا كل ما تترجاه سميرة من حياتها؛ هدايا من الإخوة وزوجاتهم اللائي ينظرن إليها على أنها تستولي على كل شيء، وهي على العكس من ذلك مسكينة لا حول لها ولا قوة.

أين مشاعرها كأنثى؟ أين الأمومة التي حرمت منها؟ أين حياتها الخاصة وحريتها مع زوجها وأبنائها، وبيتها المستقل الخاص بها تغلقه في وجه من لا تحب، وتفتحه في وجه من تحب؟ هل حكم عليها باستقبال الجميع بابتسامة تتركها معلقة عل شفتيها ليرضى عنها الجميع؟

أي حكم جائر في حق سميرة، هي إنسانة لها مشاعر وأحاسيس؛ قد تغضب، وقد تفرح، وقد تحزن، وقد تحب الانطواء والانعزال، وقد تحب أحياناً أن تغلق عليها باب غرفتها، ولا ترى ولا تسمع أي صوت، لماذا عليها وحدها أن تتحمل حكم القدر؟ لماذا الوحيدة التي عليها أن تعتني بوالدها بعد رحيل والدتهم؟ هل كونها أكبر البنات؟ أم لأنها حرمت من فرصة الزواج يكون هذا نصيبها؟ ولماذا الهدايا؟ أهي ثمن خدمتها لوالدهم؟ أم ثمن استقبالهم في البيت؟

أم ثمن الحفاظ على البيت نظيفاً ومفتوحاً في وجه كل زائر منهم لقضاء أيام الاستجمام والتمتع بجو القرية، والعودة بعد ذلك محملاً بكل ما يأخذه من

غلاة الأرض وكل ما تعبت في جمعه سميرة، وحافظت عليه وحاولت ألا يكون نصيب الواحد أكبر من الآخر خوفاً من عقاب الله، أيكون جزاؤها بعد كل هذا أن تعاقب على عدم القسمة بالتساوي؟

وماذا لو مالت مشاعرها من غير أن تقصد توجيهها إلى إحدى أخواتها وأجزلت لها العطاء، أو مدت لها شيئاً من غير علم الآخرين؟ أتكون بذلك قد خانت الأمانة؟ أهي هنا حارسة على المحصول؟

أحياناً كثيرة تنعزل سميرة في غرفتها وتبكي بحرارة، لم تكن تعرف بالضبط إن كانت تبكي فراق والدتها الذي ترك شرخاً في أعماقها، أم تبكي حظها الذي يعاند، ولم يأتِ بعد نصيبها، وربما كانت تبكي مستقبلها الذي تراه من خلال دموعها وقد أصبح باهتاً ولا بارقة أمل تلوح في الأفق، تنتهي من نوبة البكاء، وتتوضأ وتصلي ركعتين تستغفر بعدهما الله، وتدعو لوالدتها بالرحمة والمغفرة، وتقفز من مكانها لتعود إلى نشاطها المعتاد في البيت تنظف وتمسح وتطبخ... وكأنها بتلك الدموع قد وقّعَتْ عقد تصالح مع نفسها، ومع محيطها، وربما الركعتين كانتا لهما الأثر الإيجابي في إعادة الاطمئنان إلى نفسها، تتذكر باستمرار قول الله تعالى: " بعد العسر يسراً" فتتسع عيناها بالأمل، وينشرح صدرها، وتُقْبِلُ على الحياة من جديد.

****

ارتأى الحاج عبد الله أن تكون سميرة آخر محطة له لأخذ رأيها في زواجه. بعدما عرض الأمر على ابنته سعيدة أبدت في البداية اعتراضها، وإن كانت لم تصرح به جهراً، لكن ملامحها تغيرت وفاضت دمعتين من عينيها، وتركته بعدها وقامت إلى المطبخ لتعود إلى جواره وهي تحمل صينية شاي، وطبق من الحلوى، عمدت إلى تغيير الموضوع، لكن والدها استغل فترة شربه الشاي وقال، سائلاً:

ـ ما رأيك يا ابنتي فيما أخبرتك به؟ أنا لم أرغب في أخذ القرار وحدي، وارتأيت أن يكون برضاكم، وحتى إذا شاء أحدكم أن يختار لي أية زوجة؛ فأنا لا أمانع لأني لا أريد واحدة بعينيها، ولا أفضل أية واحدة على والدتكم، ولن تحل محلها مهما كانت مكانتها، هي سنة الحياة يا ابنتي قد تتزوج أختكم سميرة في يوم من الأيام، وأبقى بمفردي عبئاً عليكم، وقد أشعر يومها بالوحدة تأكل جنبات البيت، وأكون مضطراً وقتها للبحث عن الزوجة التي تخدمني في وحدتي وشيخوختي، ماذا لو تزوجتُ الآن وتستأنس مع سميرة وتساعدها في أعباء البيت وفي تلبية متطلباتي التي تزداد مع تقدمي في السن؟ البيت سيظل بيتكم مهما كان، وأنا دائماً أبوكم وليست هناك أية قوة بإمكانها تغيير ذلك.

كان كلام الأب كأنه ضغط على زر فتح بواسطته صنبور دموعها التي استمرت تنزل في صمت مستجيبة لكلامه الذي يذكرها برحيل والدتها، وبالمصير الذي كان متوقعاً من البداية، ولكنه تأخر كل هذه السنوات، لم

تجد ما ترد به كان صمتها كافياً ليعتبره موافقة منها، لم يكن بإمكانها أن ترفض ولم تجرؤ على القول له: لا تتزوج يا والدي اِرضَ بنصيبك، استسلم لقضاء الله انتظر..

كل الكلام مهما كان مؤثراً لا يمكن أن يمنع رجلاً صمم على البدء من جديد، لقد فتح باباً لن يغلق إلا بتنفيذ ما يراه هدفه، قضى الليلة عند سعيدة وناقش الموضوع مع صهره ـ زوج سعيدة ـ لا لأخذ رأيه، ولكن من باب الحوار مع رجل قد يفهم الوضع أكثر ويقنع بدوره زوجته بطريقته.

كان موقف الزوج إلى صفه لأنه صهره، والمشاعر تختلف وأيضاً الزوجة الثانية سوف لا تأخذ مكان والدته بل مكان حماته والأمر يختلف طبعاً وشتان بين الإحساسين، وأيضاً له مشاغله التي تملأ عليه كل نقطة في فكره، وكلام الشيخ لا يعني له شيئاً، حتى بعدما ناقشته زوجته في الأمر بعد انفرادها به، أجابها بكل برودة:

ـ هي حياته الخاصة، ووحده من له الحق في أخذ القرار الذي يراه صائباً، وليس لأحد الحق في التفكير مكانه. والأكثر من ذلك أخبرها أن والدها استشار معهم أما أغلبية الآباء فيأخذون القرار بشكل منفرد.

وأضاف:

ـ والدكم فعل أكثر من اللازم، لقد انتظر طويلاً إلى أن تندمل كل جروحكم، وتندمجوا في حياتكم الخاصة. أما غيره يتزوج مباشرة بعد

موت زوجته، والأكثر من ذلك ها هو يأخذ رأيكم ويطلب منكم أن تقترحوا عليه واحدة.

ويضيف:

بصراحة يا سعيدة، والدكم قل نضيره في زمان كالذي نعيشه، إنه عملة نادرة انقرض أمثاله في أيامنا هذه، أنتِ لا تعرفين ما يقع حالياً، الزوجة تكون على فراش المرض، والرجل لا يشغل باله غير التفكير في تلك التي ستحل محلها بعد مغادر المريضة إلى مثواها الأخير، يريد أن يعيش من جديد كل ما حُرم منه وهي منشغلة عنه بتربية الأبناء، أو بمرضها.

انتبهت سعيدة إلى كلام زوجها، وقالت:

ـ كلكم خونة، نعم كل الرجال خائنين، لا يبقون على العهد، لماذا عندما يموت الرجل تظل الزوجة وفية له ولعهده وتحضن أطفالها منه وتخاف عليهم وتقوم مقام الأب والأم في كل شيء؟

أجابها بكل برود:

ـ إنه حكم المجتمع، ونظرته وربما هو العرف، المسألة لا علاقة لها بالوفاء، هناك اختلاف في تنشئة كل من الأنثى والذكر في مجتمعنا الإسلامي خاصة، وأيضاً تركيبة المرأة الفيزيولوجية، وربما حياؤها من أبنائها ومن أقاربها ومن المجتمع ككل يجعلها تُغلق الباب على نفسها وتسلم أمرها لله.

صمتت سعيدة ليس اقتناعاً، وإنما كونها لا تجد بما تجيب فخبرتها قليلة، ومعرفتها بأحكام الشرع والعرف وما إلى ذلك ليست مكتملة، فتعليمها وإن كان قد وصل إلى مرحلة الثانوية فهذا لا يعني أنها تفقه في كل الأمور.

لكنها أضافت قائلة:

وماذا تعني بكلامك أن الرجل يفكر في الثانية والزوجة الأولى على فراش الموت؟

يعني هذا أنه لا قدّر الله لو أصابني مكروه سوف تفكر في الثانية، أليس كذلك؟

ـ يا لكِ من بلهاء لك قدرة خارقة على تغيير المواضيع وجعلها في النهاية تصب فيما تريدين ملأه من فراغات وفيما تودين الخوض فيه من مواضيع.

لم تجد سعيدة غير الصمت تلوذ به؛ لأنها فهمت أن المجال لا يتسع للخوض في مواضيع أخرى، والأفضل أن تفكر في موضوع والدها وما سوف يترتب عن ذلك.

****

في صباح اليوم التالي غادرها والدها وكانت وجهته أختهم الصغرى إلهام، التي تبعد عنها بنحو ثلاثين كيلومتراً، ذهب في السيارة رفقة زوج سعيدة الذي أبى إلا أن يوصله إلى بيت إلهام.

في الطريق تكلّما في مواضيع شتّى، وخاصة ما يتعلق بالفلاحة؛ لأن على طول الطريق كانت تصطف أشجار الزيتون، وكان موسم جني الزيتون قد أوشك على نهايته وظلت بعض الأشجار القليلة تحتفظ بثمارها، وعلى امتداد الطريق هناك من يبيع الزيت والزيتون الجاهز للأكل بعدما انتهوا من شراء الزيتون وبيعه للراغبين فيه جاءت هذه المرحلة.

سعيدة بعدما خرج كل من والدها وزوجها بقيت مشتتة الفكر، تفكر حينا في سميرة التي لا تعلم شيئاً عن الأمر وكيف ستكون ردّة فعلها، وتفكر أخرى في أختها الصغرى إلهام وكيف ستتلقى الخبر، وكيف سيكون رَدُّها وموقفها.

فكرت في مكالمة أخيها المهدي لتعرف منه نوع الحوار الذي دار بينه وبين والدهم، لكنها تراجعت في آخر لحظة تعلم أنه سيكون لا يزال بالبيت إلى جانب زوجته، ولن يقول شيئاً من عنده سيتكلم بمنطقها وقناعتها ولسانها، سوف تنتظر إلى أن تطمئن إلى خروجه لعمله.

عادت لتفكر من جديد في إلهام، ماذا؟ هل تتصل بها وتخبرها بالموضوع قبل وصوله إليها؟ ولكن وقتها سيعلم والدها أنها تُحيك ضده مؤامرة لإفشال خطته، وتضع العراقيل في وجه زواجه.

وعادت تقول:

ـ وإذا لم أخبرها ستلومني فيما بعد خاصة وأن زوجي هو الذي أوصل والدي إليها، وربما قالت فيما بعد أنها وافقت لعلمها بموافقتي.

احتارت سعيدة في الأمر طويلاً ثم قررت أخيراً أن تخبرها وتطلب منها أن تُبْقي الأمر سِرّاً بينهما، أما بالنسبة لوالدهم ففي كل الأحوال سيكون متيقناً أنها كلمتها حتى وإن لم تفعل.

رن جرس الهاتف، أجابت إلهام بصوت لا يزال متأثراً بالنوم، قائلة:

ألو، مَن سعيدة؟ صباح الخير.

ترى ماذا وراءك يا أختي؟

ـ صباح الخير، ألا زلت نائمة؟

ـ لا، استيقظت باكراً، وبعدما خرج الأبناء إلى المدرسة صحبة والدهم عدت للنوم قليلاً أحس برأسي سينفجر من الألم.

ـ شفاك الله يا أختي.

ـ ماذا وراءك؟ هيا أخبريني بسرعة.

ـ لا شيء، كنت أريد أن أسأل عن أحوالك فقط.

ـ لا تكذبي علي، أنت لا تتصلين في مثل هذا الوقت من أجل الاطمئنان على أحوالي، هيا قولي ما وراءك صبري بدأ ينفد.

ـ بصراحة كنت أريد أن أناقش معك مسألة تهمنا جميعاً، لكن يبدو أن الألم الذي يسكن رأسك شديد، ولن تكوني مستعدة لسماعي.

ـ لا عليك، كلّي آذان صاغية ربما انشغلت بما تنوي مناقشته معي ونسيت آلام رأسي قليلاً، وربما كان الكلام معك مهدئاً من نوع آخر، من يدري؟

ـ طيب إذا كان الأمر كذلك فإليك بالخبر، لكن قبل ذلك عليك أن تعديني بعدم إخبار والدي أني اتصلت بك.

ـ لماذا؟ وهل الأمر في غاية الخطورة؟ وهل للأمر علاقة بصحة والدي، أو أحد إخوتي؟ هيا بسرعة لقد شوشت علي أكثر.

ـ كل شيء على ما يرام، وجميعنا بخير ولله الحمد، لكن حتى يبقى الأمر سراً عليك أن تعديني بذلك، لا أريد أن يعتقد أبي أني أقف حجرة في طريقه، كما لا أريدك أن تقولي سعيدة لم تخبرني بالأمر من قبل.

ـ والله لن أفضح أمرك، المهم هو أن تتكلمي بسرعة، لقد أصبحت قلقة أكثر.

ـ أولاً والدي في طريقه إليك، لقد خرج من البيت من حوالي عشر دقائق، ثانياً لزيارته هدف من نوع خاص فهو يريد أن يأخذ موافقتنا على زواجه الذي جاء عازماً عليه.

ـ زواجه! ماذا؟ هل ينوي أن يأتي بامرأة تحل محل والدتنا؟

ـ انتظري، لا داعي للقلق الآن، دعيني أخبرك بكل تفاصيل الموضوع، وسوف أترك لك الوقت للتفكير بروية قبل وصوله وأخذ القرار الذي يناسبك دون تأثير من أحد.

لقد كنتُ محطته الثانية بعد أخينا المهدي، الذي لم يعارض كما جاء على لسان والدي. كما أن والدي أخبرني أنه توصل إلى هذا القرار بعدما رأى أن عدم وجود امرأة أخرى في حياته قد يقف في وجه مستقبل أختنا سميرة التي أوقفت حياتها على خدمته ورعايته، وربما تزوجت يوماً وفكر بعدها في الزواج، على الأقل يتزوج الآن لتساعد سميرة على أعباء البيت والأرض، وبدأ يدلي بحجج تبرر موقفه.

ـ وماذا كان جوابك يا ترى؟

ـ تعلمين أني لا أقوى أن أقف في وجه رغبته خاصة عندما أخبرني بعدم اعتراض المهدي.

ـ طبعاً لا يهمك أمرُ أختنا سميرة، هي الوحيدة التي سوف تلدغ أكثر منّا عندما ترى تلك المرأة تصول وتجول في البيت بكل حرية، وقد أخذت مكان والدتنا في كل شيء، وربما أصبحت هي الآمرة والناهية هناك بدل والدنا، وربما ألقت بسميرة خارج البيت، لم تفكري في كل هذا بكل تأكيد؟

ـ كل هذه الأشياء قمتُ باستعراضها أمام ناظري مرات عديدة، وفكرت فيها من جميع الزوايا، لكن كيف أستطيع مواجهة والدي؟ وكيف أجرؤ أن أقف في وجه رغبته؟ وهل أستطيع أن أقدم له بديلاً، وأنا التي لم أقم بخدمته ورعايته يوماً واحداً بعد رحيل والدتنا، أيحق لي أن أبدي رأياً مخالفاً،

أنا لست سلبية، ولا متواطئة ضد أحد، وأيضاً لم أصرح بقبولي أو رفضي اكتفيت بالدموع فقط.

ـ وماذا سيفهم من دموعك؟ أخبريني بالله عليك، أكيد سيقول هذه هي سعيدة دائماً حنونة وسلاحها هو الدموع، لا تعرف شيئاً غير البكاء، حتى عندما كنت في البيت وحين كان يمتنع عن تلبية طلب لك كنت تبكين بدل أن تصرين على ما ترغبين في الحصول عليه، أنتِ نموذج المرأة السلبية. اسمحي لي إذا كنتُ صريحة معك أكثر من اللازم، أذكر عندما تقدم ابن عمي لخطبتك لم ترفضي يومها، رغم كراهيتك له؛ كل ما قمت به وقتها أنك استسلمت لنوبة بكاء طويلة، لولا تدخل المهدي الذي فضح أمره، وأخبر والدي بعلاقاته مع الكثير من الفتيات لكنت اليوم تعيشين في كنف رجل لا هم له إلا أن يضم نصيبك من الأرض إلى ما ملكت يداه بعد رحيل والدك عن هذه الدنيا.

ـ ماذا دهاك يا إلهام، أنا أعرف أنك على صواب في كل ما تنعتينني به، لكن هذه أنا، وهكذا هو طبعي وتركيبتي، ربما يغلب عليّ الخجل، وربما عواطفي رقيقة أكثر وتجعل الدموع تنساب من عينيّ بكل سهولة، وتحول دون الكلام الذي يظل يتردد في أعماقي، ولا أفصح عنه، وأسلم بعد ذلك أمري لله.

ـ ونعم بالله يا أختي، أنا أعرف كل هذا جيداً وأعرف مقدار حبك لنا جميعاً، كما أعرف اختلاف طبعك عن طباعنا فأنت لا تختلفين كثيراً عن

سميرة ونسخة من والدتنا رحمة الله عليها، لكني أنبهك أن الحياة لا تقبل الاستسلام، ولا تقبل الأنثى السهلة، انتبهي إلى حياتك وإلى زوجك وأبنائك.

ـ طيب سأتركك الآن، والدي على وشك الوصول إليك، ولا تنسي وعدك لي.

ـ لا تخافي، سأعود للنوم من جديد، وإن كان الألم قد زال ولم أعد أشعر به، ولن أستيقظ إلا على دقات الباب.

ـ كوني لطيفة معه، ولا تجعليه يغضب من كلام قد يجرح مشاعره، وتذكري بأن كلامه معنا واستشارته معنا ما هو إلا تحصيل حاصل، فوالدنا قد قرر أن يتزوج وليس هناك أي شيء في هذه الدنيا يمكن أن يقف ضد رغبته، حاولي أن تبقي على العلاقة الطيبة معه، والتزمي الصمت، أرجوك لا تندفعي كعادتك.

ـ لا تهتمي لأمري، فأنا أعرف متى أرسل رسائلي، ومتى أشحنها بالغضب ولمن وكيف.

ـ أستودعك الله.

ـ دمت بألف خير.

****

عادت إلهام إلى مكانها تحتمي بالفراش، لكنها عادت بفكر مشغول، وأخذت تستعد للمواجهة بدأت تستعرض الحوار الذي سيدور بينها وبين والدها، وبين الحين والآخر تتطلع على شاشة الهاتف لترى الساعة، وتزداد دقات قلبها كلما اقتربت لحظة طرقه الباب، كانت تحاول أن تفكر في أشياء أخرى في انتظار وصوله لتبتعد عن التوتر لكنها تعود مرغمة إلى الفكرة الأساس، كيف يفكر والدها في الزواج من امرأة أخرى؟ عادت كلمات سعيدة تدق على قمة رأسها، ترى هل هي محقة؟ وهل موقفها فيه نوع من الحياد الذي تغلب عليه السلبية، أم هو عين العقل؟ وماذا لو اعترضت على قراره وأخذ والدها موقفاً منها؟ وماذا لو توتر الوضع بعد ذلك أكثر، ولم تستطع مواجهة والدها في مستقبل الأيام؟ هل ستضطر لمقاطعته؟ وعن أي ذنب؟ هو فعلاً لم يرتكب إثماً، إنه حقه الشرعي، وقد تأخر فترة طويلة عن الزواج مراعياً ظروف أبنائه وبناته. ترى هل هو صادق في إحساسه ويريد من يساعد سميرة في أعباء البيت، ويحل محلها ويفتح أمامها فرصة لبناء حياتها الخاصة قبل أن يفوتها قطار العمر؟

بدأت الأسئلة تتناسل في ذاكرتها، وبدأت تهدأ قليلاً وكأنها بدأت تجد المبررات وتستعمل القليل من الحكمة. وعادت لتتساءل من جديد: ماذا لو واجهت والدي برفضي المطلق لما هو عازم عليه وغضب من موقفي وإصراري؟ وهل أتحمل غضبه علي؟ أكيد لن أقوى على تحمل ذلك. وسوف أضطر بعد ذلك إلى البحث عن وسيلة أعيد بها مجرى المياه بيني وبين

والدي، وماذا لو تظاهر بالصفح عني وبقي شيئاً ما في صدره؟ وماذا لو غادر هذه الحياة وفي قلبه نقطة سوداء نحوي؟ وماذا لو رحلتُ أنا ولم يسامحني والدي؟ وترى الآية الكريمة تعرض أمامها بخط غليظ؛ " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ... ". صدق الله العظيم.

تململت في مكانها، وبدأت تردد بصوت مسموع؛ بعض الأدعية التي تحفظها، وصمتت ثم قالت:

ـ أكيد سعيدة أكثر اتزاناً ونضجاً مني، والتزامها بالصمت فيه حكمة كبيرة، واكتفاؤها بالدموع ليس دليلاً على سلبيتها، وإنما هي تسلم أمرها لله تعالى، وهو خير من يتدبر الأمور، لماذا لا أحاول أن أسلك طريقتها؟

تعود لتقول:

ـ ماذا أصابني، الجميع يعلم أني غير سعيدة، وغير سميرة، أنا إلهام العنيدة الثائرة لا أرضى إلا بما يرضيني.

صوت في أعماقها يصرخ:

ـ هيا توقفي، أنت بهذا تكونين قد تجاوزت الحدود، أين حق الآخر؟ أين ما يرضي هذا الآخر؟ أين حق والدك في اختيار ما يناسب حياته؟ وهل لك الحق أن تقفي ضد ما يريده؟ ومن خَوَّلَ لك هذا الحق؟ ألستِ هنا تتعدين جميع الخطوط الحمراء؟ ألا تعلمين أن حرية المرء تقف عندما تبدأ إلى حرية الآخر؟

بينما هي غارقة في الأخذ والرد، والمد والجزر، كبحر هائج يرتفع مرة، وينخفض موجه أخرى، تبعاً لقوة الرياح التي تحركه إذا بهاتفها يرن، وجرس الباب يرن في نفس الآن، احتارت هل تجيب أولاً، أم تفتح الباب، تطلعت إلى الشاشة كان رقم والدها، أجابت بصوت يدل على أنها تغادر الفراش للتو، وهي تمد خطوات ثقيلة باتجاه الباب:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليك السلام، أين أنت يا إلهام؟ أنا أقف ببابك اللحظة، ألم تسمعي جرس الباب؟

ـ انتظر، لحظة يا والدي، أنا قادمة.

فتحت الباب، وهي تمسك برأسها، سلمت عليه مرحبة، أغلقت الباب خلفه، ودخلت في أثره، وهو يسألها:

ـ ألا زلت نائمة؟ ما هذا الكسل؟ في القرية النساء أنهين العمل في الحقول، وعدن إلى البيت للقيام بأعباء البيت؟ وأين الأبناء؟

ضحكت، وقالت:

فعلاً العمل في القرية مضنٍ يبدأ باكراً كما أن يوم القرية طويل جداً.

لقد ذهبوا باكراً إلى مدارسهم.

ـ وأين مُنى الصغيرة؟

ـ ذهبت بدورها إلى الحضانة؛ لأن رأسي يؤلمني كعادته، ولم أشأ أن أتركها معي في البيت، فهي لا تتوقف عن الحركة، وهذا يزيد من ضغط الألم.

ـ شفاك الله يا ابنتي، ترى هل تناولت الدواء؟ أم أخرج إلى الصيدلية لآتي لك به.

ـ لا، لقد أخذت حبة منه، والحمد لله بقي القليل من الألم فقط.

ـ الحمد لله.

سوف أتركَكَ لحظة لتستريح من عناء الطريق، ريثما أحضر لك الشاي.

ـ دعنا من الشاي الآن، لقد تناولت فطوري عند أختك سعيدة.

ـ جيد، إذاً لم تأتِ من القرية مباشرة؟

كلا، جئت البارحة صباحاً، ومررت بالمهدي في محل عمله وجلست معه بعض الوقت، ومررت بعد ذلك بسعيدة وقضيت الليل عندها، واليوم أنا في ضيافتك على الغذاء.

مرحباً بك يا والدي، ولن أتركك لتغادرنا سريعاً، الأطفال اشتاقوا إليك كثيراً.

ـ إذا كان الأمر كذلك سأقضي الليلة عند المهدي، وعدته بذلك على أن تذهبوا معي إلى القرية بعد غد إنها عطلة نهاية الأسبوع، ليمرح الصغار قليلاً في القرية وبين جنبات البيت الكبير.

ـ أبي، امتحانات الدورة الأولى على الأبواب، وبعدها مباشرة ستحل العطلة، وأعدك أن نقضيها معك لقد اشتقت بدوري إلى بيتنا، وإلى أختي سميرة.

ـ طيب كما تريدين.

ـ سأدخل المطبخ لأهيئ الغذاء سأتركك قليلاً مع التلفاز.

ـ تعالي إلى جواري يا إلهام، لدي موضوع أريد أن تعرفين به قبل عودة الأبناء من مدارسهم.

ـ (الله يسمعنا أخبار الخير) قالتها سميرة، وهي تجلس إلى جوار والدها.

ـ كل الخير إن شاء الله.

دخل الأب في الموضوع من غير مقدمات، يحكي عن رغبته في الزواج، وأنها سنة الحياة كان قد حفظ الشريط ويعمل على تكراره من مكان إلى آخر، قد يضيف إليه قليلاً وقد ينقص منه قليلاً، ولكن صُلْبُ الموضوع لم يطرأ عليه تغيير. لم تجد إلهام تلك الشجاعة التي تحدثت بها إلى أختها عبر الهاتف، وجدت نفسها ضعيفة أمام والدها ورغبته وحججه، ولم تقوَ حتى على البكاء بالشكل الذي تُفَجِّرُ معه تلك الأحزان الكامنة في أعماقها منذ فراق والدتها.

بين الحين والآخر تنزل دمعات متفرقة، علم والدها بما يعتمل في أعماقها ضمها تحت ذراعه أحست بحنانه، تذكرت دفء وحنان والدتها فاستجابت الدموع هذه المرة ولم تمانع في النزول بغزارة.

مدّ والدها يده ليجفف دموعها، وقال بلهجة كلها قوة:

ـ ألا تعرفين والدك؟

لا أحد يمكن أن يأخذ مكان والدتكم، والبيت سيظل بيتكم، ومن لم تقبل بشروطي لن تضع رجليها في البيت، وإذا رأيت منها اعوجاجاً سوف لا أعمل على تنبيهها سأفتح لها الباب لتخرج وتعود من حيث أتت.

أنا يا ابنتي سأبحث عن امرأة تريد أن تعيش بدورها في كنف رجل، ولا يكون همها هو السيطرة علي وعلى البيت ومن فيه. هل فهمتِ قصدي؟
لم تجب إلهام، ولكنها رفعت رأسها إلى الأعلى كأنها تبحث عن متنفس لها فوجدت سقف البيت يحد من امتداد بصرها أحست بتلك الرغبة في زيارة القرية؛ هناك تطلق العنان لنظرها في الفضاء تسبح فيه كيف تشاء، ولا شيء يحد من الرؤيا تجدها تسافر في ملكوت الله تحلق بعيداً مع أفكارها وآمالها وأحلامها..
علاقتها الكبيرة بالطبيعة التي تترك انطباعاً في النفس بعيداً عن الماديات والأفق المحدود، بعكس المدينة كلما رفعت عينيها اصطدمت بالبنايات الشاهقة التي تقلص من الرؤيا.

****

انسلت إلهام من جوار والدها بخطى متثاقلة تجر أثقالاً وأحزاناً كبيرة وجروحاً بداخلها تفيض كلما خدشت من جديد، لم تشأ أن تتكلم، هي لم تقوَ على الكلام وجدت نفسها عاجزة عن ذلك، كان لكلام أختها فعل السِّحْرِ عليها ربما لو لم تتصل بها لكانت ردّة فعلها غير هذه.

تُرى هل أصابت سعيدة بكلامها معها أم أخطأت؟ عادت لنفس الحيرة، لكن كلما تذكرت كلام والدها وجدته يضمد جراحها، وقالت هامسة: نعم شخصية أبي قوية، ولن تستطيع أية واحدة أن تفرض عليه رأيها هكذا كان، ولا يزال رغم تقدمه في السن، وربما تزيده الأيام والتجارب والمحن صلابة. وعادت للحيرة والتساؤل من جديد، ماذا لو كان للمرأة سحر آخر؟ وماذا لو استطاعت أن تغير من طباعه؟

أجل كل الاحتمالات واردة، الرجل يتغير **180** درجة عندما يتزوج للمرة الثانية، وخاصة إذا كانت هذه الثانية تعرف الطريق الذي تسلكه إلى قلبه وعقله، وتعرف كيف تشبك له كل الخيوط، وتبحث معه بعد ذلك عن الحلول؛ لأنها في الأصل من عملت على تشبيكها، وهي الوحيدة التي بمقدورها حلها، يبق وقتها مشدوها وحائراً أمام قدراتها، ويعترف بعجزه وقوتها في الحل والربط، وهذا طبعاً إذا كانت صغيرة وفعلاً ستكون كذلك، لم نسمع قط برجل أعاد الزواج للمرة الثانية وتزوج من امرأة في مثل سن

زوجته الأولى، وإذا كانت هناك حالة فهذه تعتبر شاذة والقاعدة تقول أن: "الشاذ لا يقاس عليه".

تساءلت بغتة، يا إلهي؟ والدي أصبحت بحوزته موافقة كل من المهدي، وسعيدة وأنا، لم يبقَ إلا أخي الأصغر، وهو مقيم بألمانيا مع زوجته وابنه، ولا أراه يمانع أبداً لأنه أولاً بعيد عن أرض الوطن، وثانياً لا يحق له ذلك فزيارته للمنطقة تكون مرة كل سنة ولا تتعدى أياماً معدودة، ويكون همه منصباً خلالها على السفر واكتشاف مناطق في البلاد، وأحياناً يأتي في منتصف السنة من أجل مناسبة معينة في رخصة لا تتعدى عدد أيام الأسبوع.

بقيت موافقة سميرة، نعم سميرة، وماذا بإمكانها فعله المسكينة سوى الاستسلام والرضوخ.

****

صحيح سميرة أكبر واحدة في البنات، وصحيح سميرة هي مدبرة البيت والعارفة بكل كبيرة وصغيرة فيه، ولكن لا أحد ينكر أنها كانت متفوقة في دراستها، وكانت أحلامها أكبر من القرية التي لم تغادرها، هي من بين القلائل من بنات المنطقة اللواتي أحرزن على شهادة الباكالوريا وبتفوق، لكنها رفضت المغادرة إلى المدينة من جديد لإتمام دراستها لتصادف نجاحها بمرض والدتها، كان عليها أن تختار، واختارت أن تظل في خدمتها طيلة فترة مرضها، وبعدما رحلت والدتها عن هذه الدنيا كانت قد حبست نفسها في قفص أحزانها، ورضيت بقسمتها، وظلت تخدم والدها وبقية إخوانها.

ظلت في استقبال أي وافد أو زائر للبيت، تعلمت عناء البيت مكان والدتها، وأصبحت هي العارفة بكل أمور البيت، لم تنتبه يوماً إلى حالها وربما كانت تنتبه ولكن ما حيلتها وابن عمتها الذي أحبته بمجرد ما غادر القرية لم يعد لزيارتها، حتى لو عاد فقد أصبح نسخة من خاله (محمود) كل همه هو الصراع حول الأرض من أجل التمكن منها ومن عقول أهلها.

ما عاد ذلك الفتى الذي يحب الشِّعر ويتغنّى بكلماته بأعلى صوته، ليجعل سميرة تنتبه إليه، لم يعد كما كانت تراه، وكما رسمت له في خيالها ذلك البطل أو الفارس الذي سيخلصها يوماً من القرية، ومن الحياة في جو تشوبه الضغينة والحقد بعدما كان كلُّه حبّاً وأُلفة في العهد البعيد، أصبح

كلما زار البلد يحضر كل ما له علاقة بالسياسة والانتخابات وتجده يلازم خاله في حله وترحاله كظل له، ويحفظ كلام هؤلاء المنافقين، لم يعد ذلك الإنسان الطيب. كما بلغها أنه تزوج من ألمانية بحجة أوراق الإقامة وانفصل عنها بعد مدة، وتعود لتقول:

ـ وما أدراني، ألم يقضِ في ألمانيا ما يزيد على الست سنوات بحجة الدراسة، ربما تزوج هناك من أخرى بعد انفصاله من الألمانية، وربما أنجب أولاداً كل الاحتمالات واردة.

كيف يفكر من جديد في سميرة بعدما ملأ قلبه بغيرها؟ وكيف يهتم بسميرة التي تذكره بالقرية وبساطة أهلها؟ سميرة ستشده بقوة إلى الأرض، وهو يرفض كل هذا، هو يصارع من أجل أن يستولي على فكر أهل القرية ويحول مسارهم، ويحول قناعتهم إلى جشع، إنه يدرس المنطقة جيداً يسير على خطى خاله في كل شيء، ويستفيد من الثغرات التي لم ينتبه إليها الخال، وربما تفوق أمين عليه، كونه يدخلها بفكر اختلطت فيه مبادئ الغرب بالقيم بالعولمة..

أمين يلعب على حبل السياسة بطريقة يستجيب لها شباب القرية وهؤلاء لهم تأثير على عقول آبائهم، وماذا يا ترى يفعل الأب أمام إلحاح ولده وهو يكلمه بمصطلحات لا يفهم منها أي شيء سيحسب العالم تغير فعلاً، والأرض فعلا لم تعد هي الأرض سوف يرسم له العالم بألوان كتلك التي يراها في العالم الافتراضي.

تعود سميرة لتتساءل:

ـ لست أدري هل كان يدرس الهندسة كما أخبرها قبل أن يغادر البلاد؟ أم كان يدرس أساليب التحايل على عقول بسيطة لا هم لها إلا لقمة عيش نظيفة لا تشوبها أية شائبة؟

****

يقترب الحاج العربي زوج رقية بقامته النحيلة من الشجرة التي يستظل الحاج عبد الله بظلها، وهو يرسم ابتسامته التي لا تفارقه، بعد السلام قال:

ـ الحياة غريبة يا صديقي.

رفع الحاج عبد الله نظره عن الأرض، وتوقف عن النبش بعصاه عليها، بدت تلك المرارة على ملامحه، وكذا الصرامة التي ظلت تلازمه منذ ريعان شبابه.

وأجاب:

ـ الحياة هي نفسها كما أوجدها الله منذ آلاف السنين، الغريب هو الإنسان الذي يعمل جاهداً على تدميرها وجعلها صعبة ليحول كلامه فيما بعد إلى شكوى بقية عمره.

ـ أنا أقصد ما آل إليه حال قريتنا، أليست هذه هي السهول التي كنا نرتاع فيها بكل حرية ولا شيء يحد من نظرنا أيام جدك ونحن أطفال؟

أليست هذه هي الأرض التي كنا لا نعرف لها حدوداً، ولا نعرف إن كان وراء الجبل الذي يحميها أرض أخرى؟

ألم تكن في الماضي مملكتنا نعيش فيها دون قيد أو شرط، كل البيوت كانت بيوتنا وكل الثمار لنا، وكل المراعي كانت واحدة؟..

أجاب الحاج عبد الله على ما سمعه، وهو يمرر يده على لحيته بعدما توقف عن النبش في الأرض:

ـ لماذا جئت تقلب عليّ دفاتر الأيام؟ دعني مع صمتي أفكر في هدوء، وأقول ما أرغب في قوله ولا يسمعه أحد غيري.

يعقب الحاج العربي:

ـ هل تعلم، أني جئت إلى جوارك بقصد إخراجك من صمتك، جئت لسماع كلماتك التي تهمس بها، جئت لأستفيد من حكمتك، ألم تكن باستمرار في منزلة الأخ الأكبر؟ ألم تكن الوارث لحكمة جدك.

والدك، رحمة الله عليه كلما تحدث عنك في الماضي إلا وقصد أن يضرب لنا مثال الأخلاق والذكاء النير والحكمة التي مرت إليك من جدك.

وأختك رقية في كل مرة تعيد على مسامعي أنك نسخة من جدكم عمرو.

ـ وبماذا نفعتني تلك الحكمة اليوم؟ ها أنا أستظل بظل الشجرة أشكي لها هموم المنطقة التي تثقل على عاتقي، أحكي لها وأتجاذب معها الحديث، أعلم أنها لن تجيبني في يوم من الأيام، ولكني أعرف أنها شاهدة على كل أحداث المنطقة، كما لدي اليقين أنها سمعت قصصاً كثيرة، وتحت ظلها مرت صفقات كثيرة، وهي تعلم جيداً التقسيم التي عرفته المنطقة وتعرف الخونة واحداً، واحداً، آهٍ يا صاحبي لو كتب لها وتكلمت يوماً لما بقي الحال على ما هو عليه.

ـ وماذا تظنه يتغير؟ ومن باستطاعته أن يغيره؟ نحن، لم نعد نرجو سوى حسن الختام، الأبناء كل واحد رحل مع أبنائه اجتثت جذورهم من القرية ورحلوا يبغون بها أن تتعمق في المدينة وتنمو هناك، وهل باستطاعة الجذور

أن تنمو في الإسفلت؟ هراء سيظلون يحملون اسم القرية التي هاجروا منها سوف يلازمهم مهما ابتعدوا ومهما ابتعدت بهم الأعوام.

الأسماء لا تنسى، والأصل لا يمكن طمسه بملابس غربية ولسان جديد لا هو بالعربي، ولا هو بالفرنسي، ولا بتلك الانحرافات التي قد تلازم لكنته، دعنا من هذا الآن ولا تبتعد بي عن الموضوع الذي طلبته منك.

ـ ما الأمر؟

ـ ماذا يدور في رحى تفكيرك هذا الصباح؟

تغيرت ملامح الحاج فجأة وزادت انقباضاً، وقال، وهو يمد يده ليتناول العصا من جديد:

ـ لست أدري لماذا الحديث عن المكان، وعن المنطقة يجعلني منقبض الصدر، مع أن الحقبة التي نحكي عنها تلازم ذاكرتي باستمرار، يوم كانت المنطقة في قمة ازدهارها، وكانت الأرض كلها ملك لنا. نعم أعرف السبب هو ما آل إليه حالها اليوم بعدما تآمر عليها الإخوة، أجل كنا نحميها من الغريب، ولم نحسب حساب القريب، لم نكن نعرف أن القريب من يخطط للقضاء على ازدهارها واستقرارها وبتآمر من الإخوة؛ لأن كل واحد لا همّ له إلا نفسه، وما سيملكه وينتقل من بعده إلى أبنائه دون أبناء غيره، نسي أن غيره كان قطعة لحم منه وفي عروقه يجري نفس الدم.

الغريب أننا أصبحنا نعيش اليوم التفرقة ونحن إخوة من جد واحد، همُّ كل واحد الحصة التي سيتركها من بعده لأبنائه وحفدته لم يكن يعلم أن الحفدة والبعض من الأبناء لا تشكل الأرض هاجساً لهم، همهم هو الحياة المادية التي تزخر بها المدينة، وأنه بمجرد ما يضع يده على القطعة التي ستصبح من نصيبه سيبحث عن الغريب، نعم عن الغريب الذي لم يجرؤ يوماً على وضع قدميه على التربة الطيبة للقرية، لماذا الغريب بالضبط؟ بكل بساطة لأنه سيدفع أكثر ليشفي ظمأه ورغبة دفينة في أعماقه من حب هذه المنطقة، وحِيَّلِ هؤلاء الأبناء والحفدة ليفوزوا بنصيب أوفر وبشتى الطرق.

كيف لا أحس بالسأم والضجر من الحالة التي آلت إليها المنطقة، وأنا أفتقد إلى أية وسيلة يمكنها جمع شتات الإخوة من جديد، وأنا الذي كنت أُنْعَتُ بحكيم المنطقة، يأتي عليّ يوم لا أعرف الأسلوب الذي يليق بهؤلاء القوم؛ لأن بصيرتهم أعماها الجشع والطمع...

يجيب الحاج العربي:

هون عليك يا أخي، ولا تحمل نفسك مالا طاقة لك به.

يقاطعه الحاج عبد الله قائلاً:

ألم تعد لك كلمة على ابنك أمين لتكلمه عن العدول عن الطريق الذي يسير فيه؟ ما شأنه بالقرية؟ ألم يهاجر من أجل بناء حياته بشكل مخالف لما تركنا عليه؟

والله يا صاحبي يحيرني أمره وأختك رقية تسمعه باستمرار الكثير من هذا الكلام، وتوصيه بعدم اقتفاء أثر خاله محمود لكن ما العمل أمام تأثير الخال عليه؟

يصمت قليلاً، ويضيف:

لماذا لا تكلم سميرة في أمر ارتباطها بأمين، هي الوحيدة التي باستطاعتها قص جناحيه وجعله يعود للأرض من جديد؟

كيف؟ هل تريدني أن أخطبه لابنتي؟ ما هذا الذي أسمعه؟

لا يا صاحبي، أختك رقية حدثتني بالأمر مراراً، وتقول أنّ حلم أمين أن توافق عليه سميرة زوجاً لها، لكن رقية تتريث ريثما نأخذ موافقتك، لأنها تخاف أن تصده سميرة ويهاجر البلاد من جديد، وهي لا تريده أن يعود إلى غربته التي لم يحصد منها إلا أفكاراً سممت عقله.

إذا كان الأمر كذلك أمهلني بعض الوقت، وحين أجد الوقت مناسباً أفاتحها في الأمر.

في عشية يوم خميس من شهر أكتوبر فقد الحاج عبد الله زوجته أم أبنائه الخمسة يومها حزن حزناً كبيراً، وبكى في صمت لكيلا يضعف أمام أبنائه، كان يبكي يُتْمَ أبنائه وحسرتهم على فراق والدتهم.

الجميع يعتبره قوياً شامخاً شموخ الجبال المطلة على المنطقة، هو فعلاً اعتاد على الفقد منذ تجرع مرارة فقد جده الذي كان رمز المنطقة، وبعدها والده، وبعدها استمر الفقد بطعم آخر؛ فقد الأهل الذين اعتاد أن يلتقي بهم

صباح مساء برحيلهم إلى المدينة أو برحيلهم عن هذه الدنيا، وفقد الأرض بتقسيمها تلك القسمات الغير العادلة، ولم يعد من حقه المشي فوق ترابها كما يحلو له أن يفعل من غير أن يقف حاجز أو سور أو حدود من أي نوع أمام خطواته وناظره.

بفقده الأرض أحس بفقد الأمان، والمودة والإخلاص والتآزر بين أبناء من جد واحد، أحس أن كل واحد همه ما سيتركه بعده لأبنائه، لا هم له بأبناء إخوته أو أبناء عمومته أو أعمامه.

كانت سنوات صعبة سنوات الجفاف في العلاقات كما كان يحلو له أن ينعتها، تلك التي استمرت منذ رحيل الأب. كانت في أول الأمر ينظر إليها كبدعة اخترق بها أحد الإخوة نظام المنطقة ونعت يومها من الباقين بأبشع الأوصاف لكن منهم من التزم الصمت، وصمتهم كان موقفاً، ولم نعرف قراءته في حينه، ربما لغبائنا أو لسذاجتنا ظننا يومها أنهم لم يرغبوا في الكلام، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يجمعون أشياءهم في صمت ويتدارسون الموقف من كافة النواحي، كانوا ينتظرون من يدفع أكثر في سعر الأرض، كانوا ينتظرون حاجة أبنائهم إلى الدراسة في المدينة ليجدوا الحجة الواهية التي يدلوا بها في وجه نظرات اللوم أو كلمات العتاب.

كان الحاج عبد الله يقضي أيامه في التجوال في الحقول والنظر في حاجة أشجارها، وتقليم ما يلزم تقليمه و..

هي التي ربط معها علاقة لا تقدر بثمن؛ علاقة تجعله لا يستطيع النوم بعيداً عن هوائها، كان يأكل من ثمارها ويشرب من مائها إلى أن يروي ظمأه، ويعود بعدها إلى البيت ليجلس إلى جوار أبنائه ينظر في حاجاتهم وما يخصهم يسألهم عن سير دراستهم لم تكن معرفته تتجاوز ما أخذه من "المسيد" (الكتاب)، لكن رفقته لجده وصحبته لوالده وللكبار أيام طفولته وشبابه جعلته مدرسة وخبرة يعود إليها كل من أحسَّ بضيق أو استعصى عليه أمر ما ليستشيره ويأخذ من نبع معرفته ويرتوي من علمه الذي نوره بانفتاحه على أبنائه بعد ذلك حتى ما يتعلق بالأجهزة الحالية يفقه فيها، هو لا يصل إلى منزلة من تعلم في المدارس، ولكن مقارنة مع من هم في مثل سنه الذي تخطى الستين والبيئة التي نشأ وترعرع فيها، وظروف وملابسات المنطقة التي ظلت منغلقة على نفسها لسنوات وكأنها وضعت سياجاً يمنع أي دخيل كيفما كان لونه وشكله ولسانه.. حتى الزوجات قد تم اختيارهن من بنات العائلة الواحدة، لم يجرؤ يوماً أحدهم خاصة في عهد الجد أن يختار شريكة حياته من منطقة أخرى، وكيف يختارها وهو نشأ يسمع الجدة تقول فلانة لفلان، وفلان لفلانة،

لقد تم تزويجهم حتى قبل أن يعرفوا معنى الزواج، وعندما يكبر الشاب يجد كل حواسه ومشاعره موجهة بشكل عفوي إلى حيث صَوَّبوا الهدف، ونفس الشيء بالنسبة للفتاة ما تكاد تبدأ تفقه شيئاً عن الحياة حتى تعشش فكرة زواجها من فلان في ذاكرتها وأعماقها فتجدها تتحاشى النظر

إليه، وقد تُكَلِّمُ جلّ أبناء العائلة وتستثنيه من الحديث بسبب الخجل من كونه زوجها المرتقب في المستقبل، وكون الجميع يعلم بذلك وهذا يجعلها تتفادى النظر أو الحديث إليه لكيلا تثير الشكوك حولها.

لكن الحاج عبد الله غيرهم جميعاً على أيامه خرج عن المألوف يوم ذهب رفقة خاله إلى المنطقة المجاورة، وكانت بالصدفة خديجة تحمل بيدها جرة ماء وتتبع مجموعة من البنات يصدح صوتهن بالغناء لم تكن يومها تردد معهن كانت خجولة تمشي في الخلف بحياء، وهي منكسة الرأس أثارت يومها انتباهه توقف لحظة يتأملها ظنها يومها حزينة ولا تريد أن تغني، افتعل صوتاً انتبهت إليه بعينيها العسليتين فرمت بسهامها التي نشبت عميقاً في قلبه استمرت في السير تتبع خطوات البنات واستمر بدوره في أثر خاله. عاد ليلتها إلى البيت، وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، وكان والده لا يفتر يذكر والدته أن الولد أصبح في سن الزواج وحان وقت زواجه، كان والداه قد ظنا أنه سيختار بنت عمته لكنه كان يرى عمته سليطة اللسان ولا تحترم زوجها، وغالباً ما تكون البنت نسخة من والدتها.

عندما فاتحته يوماً والدته في أمر بنت عمته غضب كثيراً، وعبّر عن رفضه لها فكان رد فعل والدته أن حمدت الله بصوتٍ مسموع منه، وعندما سألها إن كان الأمر لم يغضبها، أجابت:

ـ بالعكس قرارك عين العقل، وقد أثلج صدري، وبهذا أستطيع مواجهة والدك. سوف أخبره أنك رفضتها ولا ترغب في الاقتران بها.

يومها أراد أن يعرف سبب تقبل والدته رفضه بسهولة وحمدها الله على قراره، أجابت:

أنا لم أرتَح يوماً لعمتك، فهي بالإضافة إلى كونها امرأة قوية وتتحكم في تصرفات زوجها، وتفعل الأمر نفسه مع زوجة ابنها التي تعيش معهم في نفس البيت، وما أدراني قد تجعلك خاتماً في أصبعها، ويكون مصيرك كمصير زوجها، والأكثر من ذلك أن ابنتها نسخة منها فكيف تريدني أن أقبل بارتباطك بها.

ـ ولماذا لم ترفضي من تلقاء نفسك وتخبري والدي بالأمر من البداية؟

ـ والدك يعرف أن أخته أذاقتني المر في السنوات الأولى من زواجي منه، خاصة قبل أن تتزوج ويصبح لها بيت، لم أكن في البداية أقوى على الشكوى من تصرفاتها كنت أتحمل إهانتها وتحكمها، وبعدما طفح بي الكيل وأخبرته بالأمر قال لي: عليك أن تتحمليها كما هي لأنها عنيدة ومتسلطة وهذا طبعها، لم أعد بعد ذلك أشتكي من شيء، سلّمت أمري إلى الله. تزوجت بعد ذلك وانتقلت إلى بيت زوجها، لكنها كانت تأتي إلى البيت كل حين كأنها ترفض أن تغادرنا كانت سلطوية متسلطة بشكل كبير تريد أن تدير بيتها وبيت والدها وبين أخواتها البنات، امرأة لا تعرف التعب.

يومها اغتنمت الفرصة وفاتحتها في أمر البنت الخجولة التي كانت رفقة زميلاتها، لا زلت أذكر ابتسامة والدتي العريضة التي شحنتي بالثقة، وكانت دافعاً لكي أتشبث بحلمي أكثر وأدافع عنه.

لم تقل شيئاً، لكن ابتسامتها كانت موافقة أولية ورفضها لابنة عمتي دليل على أنها ستقف إلى جانبي في اختياري.

لست أدري كيف قَنَعَتْ والدي ليرفض ابنة أخته ويخرجها كلياً من عقله ويقبل بفكرة الزواج من غريبة عن المنطقة، وهو الذي لم يرغب يوماً في الابتعاد عن أسرته وظل يعمل كل جهده على أن تظل متماسكة إلى آخر العمر.

فوجئتُ بها يوماً تسألني عن اسم الفتاة التي أخبرتها عنها، لم أجد لدي جواباً كل ما أعرفه عنها أنها كانت خجولة وكانت في الخلف، وكانت تضع وشماً خفيفاً أسفل ذقنها.

ضحكت يومها، وقالت:

ـ ترى هل نستطيع العثور على اختيارك بسهولة؟

ومن بإمكانه أن يرشدنا إلى بيتها؟

وماذا لو كانت مخطوبة لأحد أفراد عائلتها من صغرها؟ وهل يستطيع والدك البحث عنها بهذه الأوصاف؟

قلت لها، وقد فتحت لي باب الكلام لمعرفتي بمواقفها المبدئية، وربما كانت تعلم بموافقة والدي وإلا ما كانت سألتني عنها:

ـ لماذا لا أذهب غداً إلى هناك لأتقصى المعلومات؟

سألتني للتو:

ـ وماذا ستقول لهم؟

أظنك سوف تسأل أحدهم:

ـ من فضلك، من هي الفتاة التي كانت مع باقي الفتيات يوم كذا من شهر كذا؟

ألا تعلم أنك بتصرفك هذا تخدش حياء المنطقة، وقد تعرض نفسك لعقاب أهلها.

قلت:

ـ لم يكن الزواج يوماً عيباً.

ـ جرى العرف يا ولدي أن تذهب إحدى النساء للسؤال احتراماً للفتاة وحفاظاً على سمعتها، أو يذهب كبير من الرجال، وعليه سوف أبحث الأمر مع والدك لنرى من ينفع للمهمة.

لست أدري كيف تمّت الأمور بعد ذلك، انشغلت بترتيب ما يلزم للعرس رفقة باقي إخوتي بعدما علمت بموافقة أهلها على طلبي، وجاءت بعدها خديجة لتكون نعم الزوجة الصالحة، ونعم الأم التي ربّت أبناءها التربية الصالحة، كنت أحس بغمرة الأمان والاطمئنان تنبعث من دواخلي وأنا أرى أبنائي يكبرون أمام عيني يوماً بعد يوم.

رغم أنها لم تتعلم في المدارس لكنها كانت تسمع الكلام وتفعل ما يرضيني، وأنا بدوري حافظت عليها وَصُنْتُها ولم أرغب يوماً أن أراها حزينة، إلى أن تمكن منها المرض ورحلت عنّا وتركتنا نتألم جميعنا لوعة على فراقها.

رفع رأسه إلى الشجرة المتدلية أغصانها لفت نظره عنكبوتاً تنسج خيوطها بين الأغصان المتشابكة وكأنها تحاول الربط بين الأغصان لتزداد قوة والتحاماً، أو لتبني جسراً ليسهل عليها العبور بسلاسة بحثاً عن فريسة تقتات منها ويسهل عليها العودة إلى مكان سكناها، وفي الأعلى كانت هناك أعشاشاً للطيور مخبأة بعناية فائقة وبين الحين والآخر تعود الطيور حاملة الأكل إلى صغارها، ظل يتأمل في هذه الكائنات الصغيرة وكيف يَسَّرَ لها الخالق حياتها بعيداً عن أيادٍ تحطمها أو تنال منها...

هناك وراء الجبل الذي يحد المنطقة بيوتاً وأشجاراً وأناساً آخرين، قليلاً ما كان يتسلق الجبل ليعبر إلى المنطقة الأخرى، في أيام شبابه كان يذهب ليرى ما يلزم من أشياء للبيت رفقة أحد الكبار، وإن كانت الأشياء موجودة في المنطقة لكنهم كانوا يتنقلون رغبة منهم في تغيير الجو، غير أنه اليوم يجد نفسه فعلاً في حاجة إلى تغيير الهواء بعدما أصبح مخنوقاً بالجهل والغدر وضاق بصدور أصحابه.

حتى التحية بين الأفراد أصبحت نادرة، أليست التحية كلماتها السلام، أين هو السلام الذي ينشدوه من إلقائها؟ لقد مات السلام بين الإخوة بموت والدهم وكبيرهم.

نظر الحاج عبد الله إلى قرص الشمس الأحمر الذي بدأ يسرع في الاختفاء وراء قمة الجبل، وقال بحسرة:

ـ الشمس تجمع خيوطها معلنة رحيلها هي الأخرى كما رحلت خديجة، لكنها ستشرق من جديد على سماء المنطقة وتنشر خيوطها الذهبية في كل الأرجاء، لكن خديجة لن تعود رحلت من غير أن تجمع شيئاً، رحلت في غفلة منا رغم يقيننا أنها كانت على وشك الرحيل بعدما تمكن منها المسكينة المرض، لكننا كل نأمل أن تتدخل مشيئة الله وتنقدها لأجل أبنائها، غير أنها تدخلت فعلاً لكن لتنقدها من ألمها ووجعها المستمر.

لقد انتهى كل شيء برحيلها، أجل كل شيء تغير طعمه، حتى الأمان لم نعد نحسه كما الأول، نحن فعلاً فقدناه برحيل من سبقوها، فقدناه بتقسيم الأرض، فقدناه بفقد الصدق، والإخلاص، والوفاء، ولكن فقدها كان له طعم آخر، فقد البنات والأبناء لأمهم، فقد الزوجة التي تجمع أبناءها وبناتها آه.

أخرج تلك الآه التي كانت تكتم على صدره، وعاد للنظر من جديد إلى قرص الشمس، وهو يقول متسائلاً:

ـ أحقاً تتعب الشمس من نشر خيوطها طول اليوم على السهول والجبال و.. لذلك تجدها تسرع في جمع ضيائها لتغرب قليلاً من أجل الراحة من تعب اليوم واستعداداً لنشره من جديد في الغد إعلاناً عن ميلاد يوم جديد؟

نعم ترحل عن أسرار سكانها وتتركهم يجترون في هدأة الليل أحزانهم وذكرياتهم وأفراحهم.. تعطيهم مساحة للتفكير في هدأة الليل.

يضيف بمرارة:

بقدر ما كان الليل في الماضي يجمع أفراد الأسرة، ويؤلف بينهم داخل مكان واحد، بقدر خوفهم اليوم من ذكرياتهم التي تضرب موعداً مع الليل.

كان نباح الكلاب في الجهة الأخرى، ووشوشة العصافير إلى بعضها البعض وهي عائدة أسراباً إلى أوكارها بعدما أوشك الظلام أن يسدل ستاره على المنطقة ونقيق الضفادع الذي بدأ يصل من العين..

الحاج عبد الله يضيع في زحمة الأيام، وينسى أن يعيش بقية أيام عمره، وعاش على ذكرى خديجة الطفلة التي أحبها من غير أن يعرف لها اسماً، الطفلة التي تعلق بها من النظرة الأولى، وها هو في ذمته أبناء منها لا بد أن يوصلهم إلى بر الأمان ويطمئن عليهم.

****

همس أمين وهو يقف في حديقة البيت الكبير إلى جوار سميرة:

ـ لن أستسلم بسهولة، سأحاول وأعيد المحاولة مرات دون أن يعرف اليأس طريقه إليّ ولو خسرت كل الجولات.

ثم أضاف، وقد رفع صوته قليلاً بنبرة الترجي:

لن أسمح لك بإيذاءِ نفسك يا سميرة.

أجابت بمجرد ما التقطت أذنيها ما تلفظ به:

أنتَ من قالها، نفسكِ.

وما دامت كذلك فأنا أدرى بمصلحتها من أي واحد آخر، هي نفسي وأنا حرة فيها.

ـ أنت مغرورة، وعنيدة، لم تتغيري كثيراً.

ـ كيف تريدني أن أنسلخ عن طباعي وأتغير؟ ألم تدرك بعد أني لا زلت في نفس المكان الذي ولدت فيه؟ أنا لست مثلك، أنتَ رحلتَ إلى بقاع أخرى خارج الوطن، وتظن أن الأفكار التي عدت بها قمة الحضارة والتقدم.

فعلاً البلاد هناك قطعت أشواطاً في الحضارة، ابتعدت عنا بمئات السنين.

لكننا لم نتخلف عن الغرب، ولا عن ركب الحضارة كما يتوهم البعض وأنت منهم.

قالتها ساخرة.

وماذا تُسَمّي ما نحن عليه اليوم من تخلف، حتى أبسط الأشياء نستوردها من الغرب؟

نحن فقط نسير ببطء حسب قدراتنا وإمكانياتنا وحسب الطاقات التي لا تزال متشبثة بتراب هذا الوطن، والتي رفضت الرحيل إلى بلد آخر. إذا كانت البلاد الأخرى قد تطورت وسبقتنا بأشواط فنحن ساهمنا في ذلك التطور بعملنا عندهم بخبراتنا وقدراتنا وعقولنا التي بيعت هناك بأبخس الأثمنة، وفي نفس الآن ساهمنا في تأخرنا كل هذه السنين.

وأضافت:

العيب كل العيب فيهم لأنهم هم من ركبوا قطاراً سريعاً يدوس في طريقه كل من يقف في وجههم غايتهم الربح المادي والرفع من قيمة الأرباح بشتى الطرق حتى إن كان التجارة في البشر وفي مصير الشعوب لذلك سبقونا.

أنهت كلامها وتركت ابتسامة السخرية معلقة على شفتيها.

علق، لائماً:

ـ كيف يمضي كل هذا الوقت، ولا تزالين تحتفظين بنفس الطريقة في السخرية، وتتشبثين برأيك وإن كنتِ على يقين من خطئك.

ـ هل سأكون مضطرة يا أمين أن أعيد على مسامعك ما قلته سابقاً.

برقت في عينيه نظرة خوف، وابتسامة شاحبة مرتعشة تركها معلقة على شفتيه، تذكر سميرة التي أمامه لا تزال تحتفظ بشخصيتها القوية وما إن تكلمها حتى تعرف عمقها وصلابتها.

****

كان الحاج عبد الله حكيماً، عندما يتكلم يستمع إليه كل من هم حوله، لا بد أن يغذي عقولهم؛ بفكرة، بحكمة اكتسبها من الأيام والحياة التي يعترف دوماً أنها أفضل مدرسة يتخرج منها الإنسان.

قال مرة لصاحبه وصهره الحاج العربي دون أن يسأله أو يطلب منه تعليلاً لتواجده تحت الشجرة وملازمته لها:

ـ هناك أشياء كثيرة نحب أن نجربها بدافع الفضول، لكن للأسف ينتهي بنا الأمر إلى إدمانها، لذلك كنت أحاول أن أتحكم في فضولي وأوجهه حيث أريد غير أني لا أنكر أني أدمنتُ أشياء كثيرة كالجلوس تحت ظل هذه الشجرة، واسترجاع الذكريات الجميلة منها والحزينة.

يقاطعه صاحبه في محاولة لإخراجه من حالة الحزن التي يغلق أبواب قلبه عليها:

ـ هذا شيء جميل، وليس إدماناً على الإطلاق.

ـ من وجهة نظرك؛ لأنك لا تعرف الكم الهائل من الذكريات التي تتهاطل عليّ وأنا مستظل بظلها لا أتركها إلا بدخول وقت الصلاة، أحياناً أفترش الثرى وأستلقي للنوم فتغفو عيناي قليلاً مستسلماً لتلك الذكريات التي تزورني في غفوتي كأنها تضرب معي موعداً في هذا المكان.

لا أخفي عليك يا صاحبي أشعر أن الماضي قريب منّي جداً وأنا في هذا المكان، أسافر عبر الزمان وأنزل في أية محطة شئت.

ـ ربما.

ـ نعم يا صاحبي ليس بعدد السنين يقاس عمر الإنسان، وإنما بإحساسه بالحياة من عدمه بمشاعره التي تختلج في أعماقه، بلون شعلة الأمل المتوهجة في نظراته.

قد نضع أنفسنا في المرحلة العمرية التي نرغب فيها تبعاً للحالة النفسية، قد نبدو في العشرين ونحن قد تجاوزنا السبعين، وقد نشيخ ونحن لم نتجاوز عتبة العشرين.

ـ يا صاحبي انسَ الماضي بأفراحه وأحزانه، وعش الأيام المتبقية في أمان، عفا الله عما سلف ستجد راحة بال لا مثيل لها.

ـ كثيراً ما يسألني الأبناء، لماذا لم أفكر في مغادرة القرية والعيش بعيداً عنها كما فعل الأغلبية ويزداد إلحاحهم في التلميح تارة وفي التصريح بالطلب أخرى خاصة بعد رحيل والدتهم عن هذه الدنيا.

يقاطعه صاحبه، قائلاً:

بصراحة مكانك هنا بيننا في القرية، ولكن أن تعيش وسط أبنائك محفوفاً بهم فهذا أمر آخر.

ـ من يوجد في قرية كالتي نحن فيها محاط بالجبال والوادي والجهل أيضاً يكون توّاقاً إلى الخروج منها في أول فرصة تتاح له ليرى الحضارة التي

يزعمون أنهم يعيشون فيها، لكنني غيرهم يا صاحبي الفرصة كانت بين يدي وأنا في ريعان الشباب يوم غادر أخي محمود إلى المدينة، ولكني كنت كلما غادرت القرية لبعض الوقت أحن إلى العودة إلى أحضانها كل شيء يشدني إليها، لقد جبت الكثير من البلاد حتى أوربا التي أصبحت اليوم حلم كل الشباب ويرمي نفسه في الجحيم من أجل وصولها سافرت إليها أيام الشباب ولم أرَ فيها ما يراه غيري اليوم، رأيت فيها صراعاً لا يقاس بأي صراع، رأيت كل شيء لا يتماشى وأخلاقنا التي نشأنا عليها، رأيت أشياء لا يمكن أن تراها العين التي تجري وراء كسب المال فقط، وعدت منها وقد كانت المدة كافية لأكون فكرة عن الحياة في الغرب.

صحيح أنا لم أتلقَ الكثير من العلم، وصحيح أن السبب الرئيسي يعود إلى كوني لم أكن يوماً في حاجة إلى المال الذي يبحثون عنه وراء الحدود، وربما السبب الأساسي مرده إلى القناعة بالدرجة الأولى، أنا فعلاً ابن كبير القرية وكنا نحتكم على الكثير الأرض، لكن كما يقول المثل العامي: (البحر يريد الزيادة) وأنا لم أرغب في تلك الزيادة والحمد لله على كل حال.

عندما كنت صغيراً كنت أتوق إلى معرفة ما يجري خلف الجبل وأنا طفل أجوب القرية مع الأقران أو برفقة جدي، كان الأقران يحكون حكايات عن وجود الجان في القمة يتربص بكل من تخوّل له نفسه الصعود إلى الجبل كما يزعمون أنه يسكن النهر أيضاً، ويستحم في مائه.

عرفت بعدما كبرت قليلاً أنها مجرد حكايات من نسج خيال الآباء خوفاً على أبنائهم من الغريب، ومن التفكير في مغادرة القرية في سن مبكرة، لقد كانت هناك حكايات تروى عن أناس هاجروا ولم يعرف لهم أثر بعدها؛ منهم من اشتغل بالتجارة وتزوج من خارج القرية، ومنهم من سافر إلى خارج الوطن ومنهم...

لكنني كنت أود أن أشبع فضولي بتلك الأسئلة التي كنت أوجهها لجدي لأني كنت على يقين من علمه الواسع ومعرفته التي لم أرَ لها حدوداً يومها، كثيراً ما حضرت حلقاته وهو يتوسط الجميع ويحكي عن بطولات خاضتها القبيلة بحسن تدبيره وتوجيهاته، وكم مرة تصدى فيها الرجال للمعمر الذي كان يتربص بالقبيلة ولم يترك أرضاً إلا وطئها بأقدامه النجسة، والجميع يستمع إليه دون أن يجرؤ أحد على التدخل. كان يحيبني وقد سرح بنظره في الأعلى كأني به يتسلق الجبل ليرى ما يوجد هناك خلفه، ويصلح قليلاً من شأن عمامته ويبدأ في الحكي وهو يرسم بالعصا التي لم تفارق يده يوماً على الأرض كأنه يرسم لوحة تقرب لي البعيد فتجدني أتابع تلك الخطوط في التواءاتها وتعرجاتها واستقامتها ودوائرها، ويقول:

بكل صدق يا عبد الله هناك أرض شاسعة أكبر بكثير مما تراه عيناك هنا لكنها ملك لأناس آخرين، ويحق لنا أن نمشي فوقها ونجوب أطرافها، كما يحق لهم المشي فوق أرضنا، لكنها ليست ملكاً لنا كما هو الشأن بالنسبة للقرية، ولا يمكن أن نحس فيها بالانتماء لأنها في حوزة قبيلة أخرى هم

في الأصل أبناء عمومتنا لكن في الماضي البعيد وقع خلاف بين الإخوة وعاش كل واحد في الجزء الذي يليه من غير خلافات ولا صراعات.

كبرت، وكبرت فكرة الانتماء في أعماقي وترعرعت فروعها كما هو حال الشجرة، وعدت لا أرى الانتماء إلا داخل هذا الجزء الصغير من العالم قد لا يساوي شيئاً مقارنة بباقي الأرض.

بدأ فيما بعد خالي يصحبني معه كلما خرج من القبيلة لغرض؛ كان ينزلني منزلة ابنه لأنه كان قد رزق بثلاث بنات يكبرنني قليلاً، وبالنسبة لأبنائه الذكور كانوا يومها لا يزالون صغاراً.

ألا يقال عن الخال والد، كان خالي رحمة الله عليه ينزلني تلك المنزلة أقضي معه يوم السوق الأسبوعي ـ الذي كان ولا يزال يصادف يوم الثلاثاء ـ في دكانه في السوق الذي كان يعرف رواجاً كبيراً، وفي المساء يجمع كل بضاعته من الدكان ويحملها على الدواب ويعود بها إلى البيت ليزاول تجارته خلال باقي أيام الأسبوع من غرفة اختار لها باباً جانبياً حتى لا يدخل غريب بيته، صحيح كانت تجارته خلال أيام الأسبوع شبه مشلولة لكنه كان يلبي بها حاجات الناس من اضطر منهم إلى شيء قبل موعد السوق.

كان بدوره لا يفتح باب الغرفة الصغير إلا بعد عودته من العمل في الأرض، لم تكن التجارة هي مصدر رزقه الوحيد، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعيش المرء في القرية من غير العمل في الأرض.

في القرية الناس لا يشترون ما يلزمهم إلا من السوق الأسبوعي يكون هناك نوع من الرواج الاقتصادي، يبيعون فيه محصولهم من التين واللوز والزيت والزيتون وما تمدهم به الأرض من خيرات على امتداد أسابيع السنة، ويشترون بما يكسبونه من مال ما هم في حاجة إليه، وأيضاً نوع من التباهي بين أفرادها، لا يمكن أن يتخلف أي كان عن السوق وإلا نعت بالبخل والتقشف كما لا يمكن أن يعود خال الوفاض إلى بيته.

كما كنت أصاحب خالي في صلواته باستمرار، أذكر وأنا صغير كنت أسترق النظر إليه لأعرف إن كان قد انتهى من السجود أو من الركوع كان يعلم بذلك.

وكلما انتهينا من صلاتنا يحدثني عن طريقة الصلاة وعن الخشوع فيها لم أكن أفهم شيئاً عن ذلك لكنني باستمرار كنت أحرك رأسي بالإيجاب.

والدي كان يومها ذراع جدي الأيمن، ولم يكن وقته يسمح له بالشيء الكثير حتى الضيوف الذين يتوافدون على القرية لسبب لم أكن أعرفه في تلك السن المبكرة كان والدي من يتولى مهمة إيصالهم إلى البيت الذي كان جدي قد بناه على أطراف القرية في مكان معزول، ويسمى بيت الضيافة.

وهناك كانت تقع اجتماعات سرية، عرفت فيما بعد أنها كانت من أجل الدود عن القرية من أي هجوم محتمل، وعرفت أيضا أنها من أجل الدفاع عن الوطن.

كان جدي يعد من الأغنياء يومها بحسن تدبيره، فكان يزود باقي المقاومين بالمؤونة ويمدهم بحاجاتهم إلى الخبز والماء.

فيما أذكر، كانت نساء القرية يجتمعن لأجل طهي الخبز في الفرن القريب من بيت جدي لأنه الأكبر فكانت أصواتهن ترتفع أحياناً بالأهازيج، وحين يطل جدي برأسه من وراء الباب تجد كل النساء قد أرخت منديلاً على وجهها وصمتت؛ كأنها لم تكن قبل قليل تغني بصوت يسمع من بعيد.

في الليل كانت البغال تسرج وتحمل بالمؤونة والخبز والماء وتسير عبر ممر بجوار الوادي، وأخرى تتسلق الجبل عبر طريق نحتته بحوافرها، الغريب أن البغال كانت تسير وحدها من غير مرافق، وعندما كبرت عرفت أن هناك من كان يراقب سير البغال من بعيد خوفاً من أن تمتد لها يد الغرباء الذين كانوا يتربصون بالأرض وخيراتها خاصة أن تلك الأيام كانت تعد أيام الفوضى؛ الاستعمار من جهة والحرب من جهة أخرى.

عرفت فيما بعد لماذا كان والدي يغيب لأيام وكذلك رجالات القرية الكبار، لقد كانوا يتناوبون على حراسة القرية وحمايتها من أي هجوم مرتقب، وكذلك حماية باقي القبائل المجاورة التي يفصلنها عنها الجبل لأن وقت الحرب مع الغريب تنتفي كل الخصومات مع أبناء الوطن الواحد وتزول ويصبحوا يداً واحدة للتصدي لأي من سوّلت له نفسه الاقتراب من الأرض أو العباد.

أترك القرية؟ وإلى أين أتوجه؟ وأنا أحس أني لا أستطيع العيش بعيداً عنها.

لا يجد الحاج العربي ما يعلق به بعد كل ما جادت به ذاكرة الحاج عبد الله من ذكريات موغلة في تاريخ المنطقة.

لكن الحاج عبد الله يستأنف الحديث من جديد، لقد انهار ركام الذكريات أمامه ويصعب عليه التوقف قبل أن يشفي غليله من الكلام.

ـ أنا لا أعاتب أحداً، كنت أعرف من البداية أن الأسوأ سيقع في يوم من الأيام، سيقع برحيل من كان بيده الأمر والنهي، من كان يقبض على الأرض بيد من حديد، ولم يسمح يوماً بدخول غريب يشك في حسن سريرته لتطأ قدماه الأرض كان يعتبر قدم الغريب مدنسة وإذا حلَّت بالأرض سوف تصيبها اللعنة.

لم يكن متشائماً، ولكن خوفه من الغريب كان يجعله يقظاً إلى تصرفاته، كما لم يرغب يوماً أن يقترض لو صاع حبوب من أحد رغم الذائقة التي مرت منها المنطقة في سنوات الاستعمار، ورغم المحن التي عرفتها جراء الجفاف وخاصة مع نهاية الحرب العالمية الثانية...

كان دائماً حكيماً ويدخر من الحبوب، وما تجود به الأرض من تين جاف وزيت وزيتون .. جهد الإمكان تحسباً لأي طارئ، كان يحذرنا باستمرار من الآخر وأنه ينتظر الفرصة المواتية على أحر من الجمر ليمسك بالأرض ويضع عليها يده ويحكم عليها بقبضة من حديد، لم يكن يعرف أن الضربة الموجعة ستكون من أبنائه وحفدته بعدما كبر جشعهم وطمعهم، لم يكن يعلم أنهم ينتظرون لحظة مغادرته.

أنا يا صاحبي لا أحقد على أحد، وما وقع توقعته منذ سنوات خلت، واخترت في أوقات كثيرة التسامح لا لشيء وإنما لكي لا أنساق وراء سوء الظن الذي قد يتملكنا كلما رأينا ما يسيئنا، ولنحافظ على ما تبقى من إنسانيتنا.

لم يكن ما مر بهذه القرية أضغاث أحلام، وإنما هي الحقيقة بعدما عصفت رياح الجهل بأهلها ووقعت التفرقة بينهم، ولم يعد من أبنائها من ينظر أبعد من حلمه بمعزل عن الحلم المشترك؛ وهو الحفاظ على وحدة القرية، وعلى اليد الواحدة في كل الأمور.

كان يحكي دون توقف والحاج العربي يستمع إليه دون ملل لقد اعتاد على سماعه كلما التقيا، وقد أعاد على مسامعه نفس الكلام مرات عديدة، ومن بين تلك الأحداث ما عاشها إلى جانبه لم يكن فارق السن بينهما كبيراً، الفرق الوحيد هو كون الحاج عبد الله كان ابن كبير القرية، والحاج العربي زوج البنت، وطبعاً لم يكن الثاني يحظى بنفس منزلة الأول.

****

ها هو يخرج من بيته قبل أن تخرج الشمس من مخبئها، لابد أنها تأبى الخروج اليوم خاصة بعد تلك الزخات المطرية التي نزلت ليلاً.

يبدأ الحاج جولته في الحقول كما هي عادته كل صباح لم يتكاسل مرة في الخروج مهما كانت حالة الجو، يريد أن ينعم بهواء الصباح وهدوئه تنتصب قامته التي لم يأخذ منها الانحناء للأرض والعمل فيها شيئاً، لازال عوده صلباً رغم الستين التي طرق بابها من مدة، توغل بين الأشجار، كانت الأرض طرية من شتاء ليلة البارحة بصعوبة كان يحمل قدميه اللتين تغوصان بين الحين والآخر في الوحل، الفضاء من حوله مضمخ بروائح الورد والزعتر والشيح.. ورائحة التربة التي تملأ المكان بعدما تلقت قطرات المطر، ها هي تجود بعطرها الفواح لينتشر في أرجاء المكان غير مبالية بالحدود، لا تعرف معنى لتلك الحدود التي وضعها الإخوة ولا تفرق بين نصيب هذا ونصيب الآخر، كل الفضاء لها تنتشر فيه غير مبالية بما يملأ النفوس من حقد وضغينة همها إصلاح حال الجو قبل أن تتدخل يد الإنسان نهاراً ويفقد ما استرجعه في هدأة الليل وسكونه.

لكنه كان يفكر في العودة سريعاً إلى البيت، لا بد من فتح الموضوع مع سميرة الوقت لم يعد في صالحه خاصة بعد كلام صهره عن خطبة سميرة إلى أمين.

عليه أن يطرح فكرة زواجه ويربطها باحتمال زواجها قريباً من ابن عمتها، يضرب عصفورين بحجرة واحدة، بعدما وصل إلى هذه الفكرة عاد أدراجه وهو يقلب الموضوع في رأسه من كافة الزوايا.

عندما ولج البيت كانت سميرة قد انتهت من إعادة ترتيب البيت، عبثاً حاول الحاج عبد الله أن يشرح لها الموقف، كانت تنظر خلف غيمة ظللت الرؤيا أمامها ودمعة تتجمع لتسقط وتنساب على وجنتيها، ورأت هذا البيت غارقاً في الظلام، كيف تقبل بأخرى تصول وتجول بين أرجائه وهي التي طالما كانت سيدة البيت بعد رحيل والدتها، ولم تقبل مجرد التفكير أن يأتي يوم وتحل أخرى مكان والدتها.

صحيح سميرة غيرتها الأيام وأدركت وهي تسمع لطلب والدها أنها أصبحت غير الشخص الذي كانت عليه من قبل لقد ضغطت بكل الصبر الذي تملكه على كل نقطة قابلة للانفجار، ورسمت الابتسامة على وجهها وأخذت الأمور ببساطة وسلمت أمرها لله في كل شيء، لم تعد تغضب وتنفعل لأتفه الأسباب كما كانت تفعل من قبل إذا لم يتحقق لها شيء بالسرعة التي كانت تنويها، كم هو جميل أن نستسلم للظروف تفعل بنا ما تشاء.

كان الأب ينتظر في صمت بسحنته الهادئة قرار ابنته سميرة.

ساد صمت غريب على المكان برمته.

بعد برهة لا يمكن قياسها بقياس الزمن قد تكون خلالها سميرة جابت كل دروب الماضي، وقد تكون زارت خلالها قبر والدتها وسكبت الكثير من الدموع، وقد تكون رحلت في رحلة إلى المستقبل وعادت منه بعدما رأت الضباب الذي يلف أرجاءه. خرج صوتها بعدما خفضته أمام صمت والدها حتى بات همساً وبنبرات فيها خضوع وإذعان، ليكسر زجاج الصمت ويخفف من ثقله قائلة، وابتسامة فاترة تصاحبها:

افعل ما يحلو لك يا والدي، هي حياتك، ومن أنا حتى أقف في وجهك؟ ألم يوافق باقي إخوتي؟ فلن أكون استثناء أعصي لك أمراً، كنت ولا أزال وسأظل ابنتك سميرة التي تفعل ما يرضيك.

لم تكن سميرة متأكدة أن والدها يتابع كلامها في صمته الذي طال أمده كانت على يقين أنه يجوب ذكرياته هو الآخر رفقة والدتها في سنوات خلت.

وسألت بصوت اختارته هذه المرة مرتفعاً قليلاً:

أتراني قليلة الحياء لو سألتك لماذا تتخلى عنا في هذه المرحلة؟ ولماذا تختار لنفسك حياة جديدة تقصد بها البعد عنا؟

أفتر ثغره عن ابتسامة كلها حنان، وأشار إليها أن تقترب أكثر إلى جواره.

ابتهجت كطفلة صغيرة، وأسرعت كقطة تحتمي بدفء شمس أطلت في يوم غائم.

قد بدا عليها حب سماع ما سيتلفظ به والدها، وربما راودتها فكرة تخليه عما هو عازم عليه.

ران صمت قصير تنهد الأب، وقال:

سميرة ابنتي وغاليتي، إذا كنت قررت الزواج من جديد فمن أجلك يا صغيرتي، أريدك أن تعيشي حياتك كباقي إخوتك ولا تعيشي بقية أيامك من أجلي ومن أجل الآخرين من بعدي، أريد أن أطمئن عليك قبل رحيلي، أريد أن أتركك في عصمة رجل يرعاك ويقدرك ولا أريد أن يفوتك الوقت، العمر يا ابنتي يتسرب من بين أيدينا ولا نشعر به إلا ونحن على أبواب الشيخوخة.

كانت سميرة تستمع إليه، وهي تسافر في أحلامها مع ابن عمتها أمين الذي عاد وهمه الوحيد أن يجدد العهد الذي كان بينهما ذات يوم تفكر في إعادة التفكير في حياتها إلى جواره، وفي مدى صدق الأحاسيس التي جاء يعرضها أثناء زيارته الأخيرة لها، وتعود لتفكر في الزوجة التي ستحل محل والدتهم.

توقف الأب فجأة عن الكلام، انتبهت إلى توقفه فعادت من رحلة تفكيرها.

أرسل الأب نظره بعيداً كأنه يبحث عن شيء في المكان من حولهما ثم عاد وأمسك بيدها، وقال بصوت أكثر حنوا:

اعلمي يا ابنتي أن مصلحتكم هي من الأولويات، وإذا لم توافقي أنت بالضبط فلن تدخل البيت أية واحدة.

كنت أبحث عن أفضل وسيلة للتعبير عما يجيش في أعماقي، وكنت أحس قبل أن يبدأ كلامه أنه لدي طاقة للرد على أي موقف أو كلام سيصدر عنه لمحاولة إقناعي بالمسألة.

وبما أني كنت على يقين بمدى ارتباط والدنا بنا خاصة بعد رحيل والدتنا، فقد وضعت نصب عيني أن أكون أنا وإخوتي السلاح الذي أواجه به فكرة زواجه وبعدها سيضطر للعزوف عن الفكرة بشكل قطعيّ.

لقد كان ذهني يعمل بشكل سريع، وأنا أخطط وأرتب الجمل التي سوف أرد بها، وأحتمل جميع الأسئلة بسرعة مذهلة وأقدم وأُؤَخر في الكلام أترك الذي ألمس فيه شيئاً من القوة لأني أعلم أي الرجال هو والدي رغم طيبته ورغم حبه لنا فهو دائماً ذلك الرجل القروي صاحب الفكر المتحجر الذي لا يرضى أن تسيره امرأة، ولكن كلما استعملت اللين وصلت إلى قلبه وعقله معا هكذا عرفناه، وهذا كان رأي والدتي فيه رحمة الله عليها، هي حقاً لم تدرس في المدارس، ولم تتعلم من الكتب كيف تعامل الرجل ولكن عشرتها الطويلة معه وصبرها إلى جانبه، عرفت كيف هو طبعه وأي الأبواب تطرق، ومتى وأي الطلبات تكون متاحة والتي تعلم برفضها المسبق تقصيها من لائحتها. كانت توفر التعب الذي يمكن أن تجنيه من طلب لا يمكن أن يلبّى، ولكنها كانت تعرف أيضاً كيف تأخذ حقها منه وعرفت كيف تجعله يأتمر بأمرها وإن كان في الظاهر يبدو قوياً، وكونه هو العقل المدبر، وهذا هو الفراغ الذي تركه رحيلها وكان عبارة عن هوة

عميقة، وحاولت سميرة أن تشغله لكنها برغم ذلك ارتأت أن تبدأ بما يثير عواطفه ويلين قلبه.

لكنّ صوتاً بأعماقها كان بمثابة منبه يقول لها محذراً: ليس هذا هو الأسلوب الذي على الفتاة أن تكلم به والدها مهما كان، هو على حق دائماً بالنظر إلى زاويته التي ينظر منها للأمور. عليك أن تختاري كلاماً لا تجرح مشاعره كأبٍ ضحّى وربّى وعلّم وأنفق من صحته وجهده الشيء الكثير، وإذا ما تلفظت بكلام يخدش كبرياءه كأب سيرفض أن يستسلم ويظهر بالمظهر المهان، أنا أعرف غضبه وثوراته إنه هادئ فعلاً، ولكن بأعماقه بركان خامد ما دمنا لم نتجاوز الحدود، ونكون أطوع له من بنانه، ولكن إذا حاول أحدنا تجاوز الخطوط الحمراء التي رسموها لنا تلقائياً طيلة سنوات تنشئتنا سوف يصبح غضبه هو المسيطر على الموقف وعلى الرؤيا، وينفجر البركان فجأة ولم يعد يتبين إذا كان الذي يحدثه ابنه أم عدوه.

فجأة أحست بوخزة الذنب المفاجئة واسترجعت مواقف كثيرة إلى مقدمة ذاكرتها تغير فيها مزاج والدها كانت والدتها الوحيدة التي بإمكانها تهدئته، ولكن ماذا لو عكرت مزاجه اليوم؟ وأين هي والدتها بعدما رحلت بعيداً وتركتها تواجه أمواج الغضب وبركانه وحدها؟

تراجعت بسرعة عن قرارها، وقالت:

ـ عليّ أن أكون أقل أنانية وتعصباً لأفكاري مهما كان، إنها حياته الخاصة وما أدراني بمواقف باقي إخوتي وما أدراني بنوع الحوار الذي دار بينه

وبينهم؟ ولماذا أكون أنا وحدي الحجرة العثرة التي تقف في وجه سعادته؟ نعم ربما كانت فرصتي بدوري، ولماذا لا أفكر من جديد في الارتباط بابن عمتي؟ ألم يكن زواجه فاشلاً مع الألمانية كما صرح لي؟ ألا يعيش الآن وحيداً وربما كان صادقاً كونه ارتبط بها بسبب الظروف التي اضطرته إلى الارتباط حسب زعمه من كونه لم يكن يعمل يومها، وأيضاً من أجل أن يحقق ذاته ويحصل على أوراق الإقامة ولم يكن إغراء من أي نوع.

توقفت عن التفكير وكأنها استسلمت إلى قدرها، ولم تبتعد برأسها عن والدها، وهي تراه يمد يده ليلمس خصلة من شعرها تركته وسافرت من جديد في مرحلة الطفولة.

تركت السبيل لدمعتين تنسابان في هدوء على خديها، وتساءلت في صمت:

تُرى هل أبكي عجزي؟ أم موت أمي؟ أم أبكي خذلان ابن عمتي الذي تخلى عنّي طيلة هذه السنوات وعاد ليطلب ودّي من جديد؟ أم تراني أبكي كوني أنثى، والأنثى كانت ولا تزال ضعيفة مهما ما يحاك عن قوتها من حكايات، ومهما الحقوق التي يتكلمون عنها والمساواة التي ينادون بها.

الأنثى ستظل أنثى لأنها كذلك في ثقافتنا، وهذه لن تتغير بين عشية وضحاها؛ لأنها متوارثة وساكنة في أعماق كل أنثى، وتعمل على زرعها بطريقة أو بأخرى في فكر الأجيال اللاحقة؛ المرأة إذا كانت لها بنتا فإن خوفها عليها يجعلها تذكرها باستمرار بكونها أنثى، وإذا كان لها ابن ذكر لا

تفتر تمرر له من تلك الأفكار كونه رجل ومن حقه كل شيء ليس من حق الأنثى.

صحيح قبل أن تصبح الأنثى مسؤولة في أسرة تدافع وتنادي بكل أشكال المساوات، لكنها ما إن تصبح أمّا حتى تبدأ في ترسيخ فكر له جذور في أعماقها عن الفرق بين الذكر والأنثى، وعندما تصبح حماة فذلك أمر آخر يومها تذيق زوجة ابنها المر، ولا تنسى أن تُذكّرها في كل المواقف أنها أنثى، وقد تكون ترد لها كل ما فعلته قبل ذلك حماتها معها.

الأنثى كانت ولا تزال لا تستطيع الذهاب وحدها أينما شاءت دون أن تكون محط ظنون وخوف عليها، وما بالك بواحدة مثلي في منطقة قروية كالتي أنتمي إليها وفي أسرة محافظة كأسرتي ليس لي حتى مجرد الحق في التفكير في مغادرة البيت، وإذا فكرت مجرد التفكير في مغادرته إلى أين أتوجه؟ هل للسكن مع أخي الأكبر لأقضي يومي في المطبخ والغسيل كخادمة لزوجته وابنة عمي التي لم يتجاوز تعليمها المستوى الابتدائي؟ أم أحط الرّحال عند أخواتي البنات، وأنا لا أرضى أن أكون عالة على أحد؟ لم يبق أمامي إلا الدموع والحسرة.

تطلعت بعدها على وجه والدها كان الحزن باد على ملامحه، وقد أدركت أن أعماقها أصبحت كتاباً مكشوفاً أمامه، وأنه قرأ كل ما يعتمل بداخلها، ورأى كل الأمواج وهي تلقي بها على هامش الحياة بعدما أصبحت محاطة بالكثير من الهموم.

أحست بنفسها صغيرة لحد العدم، وبدأت مرحلة تأنيب الضمير فهي لا ترغب أن يقرأ والدها ما تفكر به، لطالما احترمته وقدرت مكانته بين رجالات القرية وأحبت مواقفه الشجاعة، ودائماً كان فخراً لها، فكيف يعلم بكل ما فكرت به؟ إن مجرد التفكير في أمر كهذا تقليل من شأنه هو الذي لم يتخل عنهم يوماً، ولم يرد أن يشعرهم باليتم، وظل طول الفترة الماضية إلى جوارهم سنداً لهم وأباً يحمل في قلبه من العطف والمحبة ما قلّ نضيره بين رجالات زمانه. أحست بجدران الغرفة تطبق على أنفاسها، حتى الهواء أحست أنه أصبح ثقيلاً؛ ربما السكون والصمت والتفكير المضطرب وتضارب الأفكار وتسارعها السبب فيما أحست به.

لم تنتبه إلا وهي تجثو على ركبتيها أمام والدها، هي التي كانت تنتظر أن تشرق الفرحة في عينيه ويهلل لرضوخها لطلبه، قال بصوت هامس والدمعة تترقرق في مقلتيه:

أنت تعلمين مقدار حبي لكم يا سميرة، ولقد وعدت والدتك وهي على فراش الموت أن لا أغضبكم في غيابها وأن أحميكم من كل مكروه، ومن دونكم لا معنى لوجودي في هذه الحياة، فكيف تريدين ألا أفي بوعدي لمن أفنت شبابها وصحتها في خدمتي؟ كانت نعم الزوجة الصالحة، ونعم الأم، ونعم الحبيبة.

فكرة زواجي يا ابنتي ليست نزوة، ولا رغبة في امرأة تحل محل والدتكم، كل ما فكرت به أن أترك لك المجال لتعيشي حياتك، ولا تربطي مصيرك

بعجوز مثلي، فقد أرحل في يوم من الأيام وأريد قبل رحيلي أن أراك في بيتك محاطة بأبنائك كما هو حال أختيك، كما لا أريد أن أظل عبئاً عليكم فتفكيري في امرأة أخرى من أجل رعايتي في شيخوختي، ولكي أثبت لكم حسن نيتي لن أختار واحدة تنجب لي أبناء أنتم أبنائي وكل ما كنت أبتغيه من دنياي، فكرت في الزواج من المرأة التي يشاع عنها أنها عاقر تلك التي تزوج زوجها من الثانية، وطلبت منه الطلاق عندما أنجبت له الثانية ولداً وعادت إلى بيت أهلها أقصد حليمة التي تقرب لوالدتكم ستبقى في خدمتي، وأنا بدوري سوف أرعاها وأحسن إليها، وأرد لها البعض من كرامتها.

كان يتكلم وهي تستمع إليه مطأطئة الرأس تحت ذراعيه، توقف فجأة وشملهما الصمت من جديد.

عاد ليسأل بلهجة تنم عن العطف والرفق أكثر من السؤال:

ـ سميرة يا ابنتي، إذا كنت لا ترغبين في الأمر وتظنين أن هذا سيؤثر على حبي لكم فأنا أعدك أن أتراجع عن الفكرة من الأساس؟

رفعت رأسها، وأجابت مستنكرة:

كلا يا أبي، أنا راضية عن اختيارك ولن أقف في وجه رغبتك مهما كان ستظل والدي الذي أكن له كل الحب والتقدير، ولن ينقص شيء من إحساسي نحوك.

مرّر الأب يده على رأس ابنته في حنان، وقال:

ـ الله يرضى عليك يا سميرة وعلى باقي إخوتك.

أخذت سميرة يد والدها وقبلتها بكل رضا، وهي تغالب دمعة تريد أن تفيض من عينيها.

أضاف الأب:

ـ والآن سوف أخبرك بأمر يهمك كنت أنتظر حضور المهدي ليبلغك بالأمر بدلاً عني لكنه أخبرني بحضوره إلى القرية بعد موافقتك.

عن أي شيء سأوافق؟ وبماذا تريده أن يخبرني؟

كلمني زوج عمتك والد أمين في رغبته في طلب يدك وقد ألح عليّ كثيراً في الأمر، لكني كما تعلمين ليس لي الحق في أخذ قرار يخصك، أخبرته أن الأمر يعود إليك.

****

جاءت سعيدة على وجه السرعة إلى القرية بعد علمها بموافقة سميرة على رغبة والدهم، وبقصة موافقتها المبدئية على الارتباط بأمين.

لكن ما إن فتحت موضوع أمين مع سميرة حتى انفجرت هذه الأخيرة غاضبة، كأنها كانت تنتظر سؤالاً يجرها لإخراج ما تشعر به، واسترسلت قائلة دون توقف:

ـ لا أرغب يا سعيدة أن أوجهَ من زر أحد كيفما كان، لم يكن العصيان شعاري في يوم من الأيام، لكن بعد الصفعات التي تلقيتها من أقرب الناس إليّ عدت أعمل بتوجيه داخلي من عمق أحاسيسي، رغم يقيني أن هذه الأخيرة قد تخطئ كما حدث في الماضي حين لَمَّعَتْ لي صورة أناس وهم من أقبح ما يكون، وسبق وخانتني مرات عديدة وفي مواقف مختلفة.

أنا لم أكن أعمل بتوجيه من عقلي فقط، غالباً ما كنت أشرك أحاسيسي وأعطيها نصيبها في الحكم على الأشياء.

كثيراً ما تساءلت، لماذا نغتال تلك الأحاسيس الجميلة التي تكون قد استوطنت أعماقنا ونحكم عليها بالنهاية المحتومة لمجرد أن هناك إشارات وصلتنا تشي بالخيانة والخذلان؟

كنت أعمل طيلة سنوات على ردم تلك الهوة التي قد تكون بسبب الجهل أو تلك التي تكون بفعل الفوارق الاجتماعية، لم أشأ أن يشعر يوماً بتفوقي المعرفي ولا بما يملكه والدي مقارنة مع والده الذي لم يكن قبل زواجه من عمتي شيئاً يُذكر. لا زلت أذكر ما التقطته أذناي وأنا طفلة إلى جوار والديّ

حين سَأَلَتْ والدتي والدي كيف سمحوا له بالزواج من عمتي، وكيف تمكن من كسب قلب جدي ليوافق عليه، علمت أنه جاء يبحث عن عمل عند جدي وكان حافظاً لكتاب الله فخص له غرفة محاذية للمسجد يلقن فيها القرآن للصغار وتعليمهم المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وهذه كانت نقطة ضعف جدي لم يكن يستطيع أن يسمع بأحد يحمل في صدره كلام الله ولا يجزل له العطاء، غير أن العطاء هذه المرة كان ابنته التي اختار لها هذا الزوج ليشاركها حياتها ويشارك القبيلة بعد ذلك في اقتسام الأرض التي ستؤول إليه من نصيب زوجته.

توقفت لحظة في حين بقيت سعيدة محافظة على صمتها تنتظر أن تفرغ أختها كل ما في جعبتها لعلها تقوى بعد ذلك على سماع صوت آخر غير صوتها.

عادت سميرة بعد لحظة لاستئناف كلامها، لكن هذه المرة تطرقت لمواضيع مختلفة كان الجزء الأكبر منها منصباً على جمع أشياء تخصهم في غرفة خاصة لكيلا تصلها يد المرأة التي اختارها والدهما رغم ثقتهما في حليمة التي كانت لا تتأخر عن زيارتهم بين الحين والآخر، ومساعدتهم في اشغال البيت خاصة أثناء فترة مرض والدتهم.

فجأة حوّلت سعيدة الموضوع للحديث عن أشياء ظلت تحتفظ بها لنفسها، ولم تكن ترغب في الإفصاح عنها لغيرها:

ـ في الماضي كنت أنظر إلى وجه والدتي بعدما أرسم ابتسامة رضا علّها تملؤها بالأمل، هكذا اعتادت أن تقول لنا:

ـ أن ابتسامتنا قوة لها.

لكني كنت ألاحظها تدقق النظر في تفاصيل وجهي أدرك أنها تبحث عن شيء أخفيه عنها بتلك الابتسامة، من نظرات عينيها كنت أعرف عدم اقتناعها بابتسامتي، وكأنها تسألني عما أخفيه عنها.

أعرف أني كنت مكشوفة أمامها، ولكنها كانت تكتفي بالنظرات، وتخرج بعدها زفرة كانت تثقل على صدرها.

لم تكن عندي يوماً الشجاعة لأرتمي في حضنها أحكي لها عن الأشياء التي تؤلمني، عن بعدي عنها، وعن كل عائلتي، وعن مدينتي، عن غربتي، وعن وحدتي وعن....

لكنها كانت تحس بكل ما أخفيه عنها لأنها بدورها كانت تشتاق إليّ، وتحس بدورها بالفراغ الذي تركته بابتعادي عن البيت.

كنت في كل مرة وأنا أغادر فيها البيت بعد تلك الزيارات التي كنت أقوم بها يجتاحني شعور غريب أحس أني قد لا أراها مرة أخرى، كنت في كل مرة أراها تذبل أكثر، ويشتد عليها المرض أكثر، ويصبح جسمها هزيلًا من السقم تتسع بأعماقي رقعة الإحساس بفقدها، مع الأيام وبعد رحيلها أدركت أني كنت أفقدها بالتدريج، وكأني كنت أتعود على ذلك الفقد، عرفت بعدما غادرتنا أن حكمة الله شاءت أن يكون للمرض دور رغم

الألم الذي يحس به المريض، وكل من هم حوليه إلا أنه يخفف من الفقد، وإن كان فقد الأم لا شيء يخفف من وطأته يظل جرح الفقد ينزف مع الأيام، ومع كل ذكرى وينزف كلما حل العيد وكلما مرت بالذاكرة وهل الأم شيء ينسى؟ إنها تسكن منا القلب والذاكرة.

تتوقف سعيدة عن الكلام.

تضيف سميرة:

باستمرار تمر بذاكرتي صور من الماضي وكيف كان كل همّها أن تهيئ الطعام من أول اليوم إلى آخره، وترى كل حاجاتنا دون أن نطلب منها، وحاجات البيت والزوج إلى أن أنهكها المرض، وجلست على فراش في غرفتها لا حول لها ولا قوة، تَرْقُبُ من مكانها متى يقبل يوم جديد، ومتى تغرب شمس اليوم الذي طالت عليها ساعاته، ومتى يقدم لها الطعام في مكانها، هي التي أفنت صحتها في خدمة الجميع لا تكل ولا تمل ولا تشتكي.

تكمل سعيدة كلامها بمجرد ما توقفت سميرة قليلاً، من غير أن تنتبه إن كانت ترغب في مزيد من الكلام:

أذكر حين كنت أطلب منها أن ترافقني إلى بيتي في المدينة وكيف كانت تمتنع بحجة مرضها، وتعدني أن تفعل حين شفائها، كانت تعلم يقيناً أن مرضها مزمن لكنها كانت طريقتها في الامتناع بلباقة.

أذكر كم كانت والدتنا حكيمة في صبرها، في تعاملها مع مرضها ووجعها المستمر.

مرة سألتها:

لماذا لا تخبرينا بكل ما تحسين به؟

أجابت:

وما جدوى الشكوى يا ابنتي؟ وقد ابتلانا الله بالداء لكنه مدنا بالقوة على التحمل والصبر. الصبر نعمة يا ابنتي، وماذا بمقدورنا فعله؟ علينا أن نقبل بحكم الله ونرضى بما كتبه لنا.

أضافت سميرة بعد ذلك:

سأوافق بدوري على أمين لم يعد أمامي حل آخر.

ترد سعيدة بلهفة:

أمين ابن عمتنا يا سميرة، والجميع يشهد بحبه لك، ولن تندمي بقرارك هذا.

****

بهذا العرض التراجيدي انتهت مشاهد المسرحية وبموافقتها أخيراً على طلب والدها أسدل الستار، وربما كان الفصل الأول فقط لتأتي بقية الفصول أكثر تشويقاً.

كان الفصل تراجيدياً فعلاً استعرضت من خلاله كل صراع والدتها مع المرض، وتشبثها بالحياة لتظل تحافظ على الأسرة من الضياع قدر الإمكان، لكنها لم تنسَ دور والدها عندما صبر بدوره فترة مرض والدتهم الطويلة وصبر مدة بعد رحيلها، قلَّ من الرجال من يفعل مثله، كان في العرض دموع تنزف حزناً وكمداً على رحيلها، وعلى مستقبلها الذي بدا من خلال الدموع باهتاً رغم موافقتها على أمين فهو سيذكرها دائماً بتخليه عنها في وقت كانت في أشد الحاجة إليه.

أمين الذي سلمته مفاتيح قلبها ذات يوم فأغلق الأبواب وألقى بالمفتاح في البحر وهو يحلق إلى أوربا بحجة بناء المستقبل.

تنازلات كثيرة وكبيرة قدمتها في حياتها أحست كأنها رمت بكرامتها أرضاً لتدوسها الأرجل، لكنها تعود لتجفف دموعها التي تحاول بواسطتها أن تفرغ الوجع الذي استوطن أعماقها، وتفرغ معها كل بؤسها ومعاناتها ووحدتها.

وترفع رأسها عالياً، وتقول:

ـ قد تنسيني الأيام ما مرّ بي فهي كفيلة بذلك، غير أنها عادت لتنكسها من جديد حين أحست بركام من الذكريات انهال على ذاكرتها فجأة وأثقل عليها، وعادت للتساؤل من جديد:

هل كنت مخطئة في قراراتي؟

هل كان أمامي أن أكمل دراستي، وأترك والدتي وهي في أمس الحاجة إلى تواجدي إلى جانبها؟

هل كان يجدر بي أن أتركها لأيادٍ غريبة ترعاها في لحظات ضعفها، وهي تصارع المرض الذي أنهك قوتها؟

هل كنت مخطئة وأنا أصدق اعترافات ابن عمتي بحبه ووعوده التي قطعها على نفسه؛ وكوني سيدة قلبه، ومن بيدي مفتاحه وزوجة مستقبله؟

هل أنا اليوم مخطئة عندما وافقت على ارتباطي بأمين؟

وهل كنت مخطئة وأنا أوافق على قرار والدي في العيش مع امرأة أخرى في بيت ملأت أركانه ذكريات والدتي ورائحتها ولمستها في كل شيء؟

بأية حجة وأية ذريعة كنت سوف أصده عن قراره؟

ألم يكن دائماً هو صاحب الأمر والنهي؟

ألم يكن دائماً القرار بيده يفعل ما يريد ومتى يريد؟

أليست حياته وهو الأولى بأخذ القرار الذي يناسبه من غيره؟

ومن أنا لأمنعه؟

ومن أعطاني الحق في قبول أو رفض ما يعتزم فعله؟

هل كوني أعيش معه في نفس البيت، وأخدمه وأسهر على راحته يخول لي الحق لمنعه؟

****

الجميع يشهد أني أشبه والدتي حتى في أحاسيسها، في الماضي كنت أقف بالساعات أمام المرآة أتطلع على ملامحي وأبحث عن الشبه بيننا كنت وأنا صغيرة لا أجد شبهاً كبيراً؛ ربما استدارة الوجه، ربما رسم الفم، بالنسبة لشعرها كان حريرياً ولونه فاحم كالليل وشعري يشبه شعر والدي، عيناي لونهما بني بخلاف عيناها الشديدة السواد، نظرتي متطلعة إلى المستقبل تنط منهما الحياة، ونظرتها ذابلة منكسرة حزينة حتى أنك تستطيع أن ترى بريق الدمعة يلمع في مقلتيها كأنها تسكنهما وتأبى مغادرتهما. تجدها جدية ومنشغلة طول الوقت، بينما تجدني لا أقف عن البحث عن مواضع للسخرية لأملأ المكان بضحكاتي، كبرت وبدأت الفكرة تكبر معي وبدأ الشبه يتجلى يوماً بعد يوم، انطفأ البريق من عينيّ لتسكنهما غمامة ممطرة تترقب باستمرار هبوب ريح تأذن لها بالانهمار، بدأت ملامح الصورة تتضح تيقنت من فراسة من شبهني بها ذات يوم، وتيقنت من الشبه الكبير بيننا حين ذهبت مرة رفقة سعيدة لنأتي لها بالدواء من المدينة حيث تسكن. سألتني يومها المسؤولة عن قسم الدواء إن كنت ابنتها، حركتُ رأسي بالإيجاب فأشرت إلى سعيدة التي كانت بدورها إلى جواري وقلت وهذه أختي ابنتها أيضاً، قالت لكنك تشبهينها كثيراً ابتسمت وقلت لها الجميع يشاطرك الرأي. تساءلت: كيف يمكن للسيدة أن تعرف الشبه من لمحة عابرة على صورتها في ملفها الصحي؟

عدت يومها إلى البيت وبدل أن أنشغل بأشياء أخرى جلست أمام والدتي، وانشغلت بملامح وجهها كانت ملامحها قد علاها الذبول وتغيرت بفعل السنون لقد لحقتها التعرية كتلك التي تلحق بكل الأشياء بفعل تعاقب الأيام، وحالات الجو المتقلبة بفعل العواصف والرياح والشمس والمطر و...

تغيرت المسكينة أكثر بعدها استوطن المرض جسمها ونخره وصيره إلى ضعف بعد قوة، تأملت نظراتها المنكسرة رأيت دمعة تسكن مقلتها اليمنى، رأيتها وهي تنسكب في هدوء من عين واحدة ومن الجهة المحاذية للرأس ربما كانت عينها بها هي الأخرى ألم، وقد تكون دمعة حزن على ما آلت إليه من ضعف لم تمد يدها لمسحها لكي لا تنهمر الأخرى أو لكي لا تزيل ذلك الشيء الذي يقف حجرة وحاجزاً أمام أول انفجار ويصعب عليها التوقف بعد ذلك، تذكرت أني سمعت يوماً أن من يبكي من عين واحدة يكون أكثر حناناً، وتذكرت أني كثيراً ما بكيت من عين واحدة وكانت أكثر سخاء معي من الأخرى التي تتحجر وتجف مقلتها، وقلت في داخلي ها هو الشبه يمتد إلى العواطف والمشاعر، أمي أيضاً كانت تتعصب وترفع صوتها من الغيض لكنها كانت طيبة كثيراً وتسامح من ظلمها بسهولة.

قمت مسرعة إلى المرآة قبل أن ترحل من عيني تلك الصورة وسافرت في تقاسيم وجهي رأيتني أشبهها كثيراً، ورأيت تلك الدمعة أيضاً تسكن مقلتي.

بعد رحيلها تغير كل شيء، صحيح أمام مواقف كالتي أقفها تجد نفسك تقف عاجزاً مستسلماً وأنت ترى رقعة الوجع تتسع بالداخل ومساحة الأمل تتقلص. في مرات كثيرة وجدت نفسي منعزلة عن الجميع بدأت أفقد الإحساس بالزمن، وبدأ ترتيب الأيام يهوي ويتساوى عندي الليل والنهار والأحد بالجمعة وحتى الشهور والفصول، لأنك لا تتمتع بشمس الصيف كما لا تسر عينيك ببهجة الربيع وقد لا يغسلك المطر من غبار علق بك في الخريف.

أحياناً كنت أعتقد أنّ الوقتَ ليل، وأخرى أحسبه نهاراً أصبحت أغفو متى أحسست برغبة في ذلك، لا فرق لدي إن كان الوقت عصراً أم فجراً، شمساً حارقة تتربع وسط السماء أم عتمة تغطي معالم الكون لأني في مكان أصبح كل شيء فيه سواء.

صحيح لم يتسرب اليأس إلى قلبي بعد رغم المحن التي مررت بها ورغم العزلة التي دخلتها، وكنت أحسب أني أسرت نفسي فيها باختياري؛ لكنها كانت بسبب الظروف التي تراكمت عليّ وتزاحُمِ الأحداث الواحدة تلو الأخرى.

فقد والدتي جعلني أُسَيِّجُ نفسي بسياج العزلة، وأرفض أي حديث أو نقاش من أي نوع، الجميع كان يعلم بمعاناة والدتي مع المرض الذي عانت منه لخمس سنوات، والجميع يشهد أني الوحيدة التي سهرت على العناية بها كنت أريد أن أردّ لها القليل ممّا تحملته في تربيتي والعناية بي وأنا صغيرة، لكن

هيهات أن نستطيع أن نرد للأم شيئاً مما عانته من أجل أن تصل بنا إلى بر الأمان، ليس بمقدورنا أن نوفي لها بأي قدر مهما حاولنا.

وكيف نرد لها إحساسها الدائم بالخوف علينا، بأية عملة ندفع ثمن الخوف والمشاعر؟ بأية عملة نقايض تلك الأحاسيس المتدفقة للأمومة؟ آه ليتني استطعت يوماً أن أخفف عنها القليل مما كانت تعانيه مع المرض ليتني ..

بعد رحيلها مررت بفترة عصيبة، أذكر أني امتنعت لفترة من دخول غرفتها؛ لأني لم أتصور أني سوف أفتح الباب ولا أجدها ممددة على فراشها، أو أجدها مستلقية من الألم على بطنها كما كانت تفعل في مرات كثيرة، وأكلمها بكلام أقصد منه أن أخفف عنها لكنها كانت الوحيدة التي تعلم مقدار ما تتحمله من الوجع.

في صباح يوم من الأيام كان قد مر أزيد من أسبوعين على رحيلها أحسست بطاقة خفية تغمرني.

صلّيت الصبح، ودخلت في دعواتي لها بالرحمة كما كنت أفعل كل حين بعد فراقها، وقبل رحيلها أيضاً حين كنت أدعو الله أن يرحمها ويخفف عنها الألم وأن يشفيها من المرض، لكن الأجل كان قد بلغ نهايته ولا مرد لقضاء الله.

قمت بعدها دون أن ألتفت يميناً ولا يساراً توجهت تواً لغرفتها، كان باب الغرفة مواربا بعدما غادره والدي إلى الحقول كعادته كل صباح هروباً من البيت؛ لأن كل شيء فيه يذكره بها، أعرف أنه يفتقدها كثيراً. والدي ككل

الرجال لا يعبر عن مكنونات صدره، يحاول باستمرار أن يمدنا بالقوة حين يقول:

ـ هي مشيئة الله، ولا مرد لقضاء الله.

نعلم جميعنا أنها مشيئته، وأن البقاء لله وحده، ولكن ما حيلتنا في القلب الذي نحمله بين صدورنا، ما حيلتنا وطاقتنا على الصبر قليلة.

دخلت الغرفة وجدتها هادئة صامتة يسكنها نوع من الحزن، أدركت أنها تعيش بدورها وجع فقد صاحبتها.

أجل وجدت الغرفة غارقة في حزنها صامتة لفقدها أحسست بشكوى كل الأشياء حتى الجدران والزوايا، بعدما امتلأتُ حزناً بكيت بحرقة وأنا مستلقية على فراشها، أحسست بعدها بإحساس غريب كأنها تنظر إلي وتعاتبني بنظرة كلها حزن وعتاب، تذكرت أنها لم تكن تريد أن ترى دمعة أحدنا، كانت تريدنا سعداء باستمرار.

أذكر أنها كلما كانت تراني صامتة، وهي التي اعتادت عليّ كثيرة الكلام والحركة تسألني مستفسرة عن سبب قلقي، وكلما أخبرتها أني بخير ترفض أن تصدقني وتلازمني نظراتها طول الوقت تحاول أن تعرف ما يشغل بالي.

نعم هي الأم، هكذا زرع الله في قلبها حبها لأبنائها. قمت من مكاني أجفف دمعتي، وخرجت من الغرفة لأجد نفسي أمام المرآة أتطلع على شكلي؛ رأيت نظراتي غائرة وجفوني علاها الذبول، قلت هامسة:

ـ آه يا أمي، لو كنتِ هنا لما قبلت أن تري ما ألمّ بي من ضعف، وما حلّ بجفوني، غسلت وجهي على الفور واستعدت طاقتي وحيويتي وأنا أتنقل في أرجاء البيت أرتبه وأمسح ما علق بالأثاث من غبار، وبين الحين والآخر أجمع بعض أغراضي الخاصة قد آخذها معي إلى بيت عمتي بعد عقد قراني على أمين.

****

غالباً ما تجده يلوذ بوحدته، ويرفع أسوار عزلته عالياً، لكيلا يجرؤ أحد على تسلقها أو إخراجه من أسرها، خاصة بعد رحيل خديجة عاد همه الوحيد التجوال في الحقول والسؤال عن أبنائه والنظر فيما يخصهم، وبعدما يطمئن عليهم لا بد أن يغلق عليه باب صمته وانطوائه، لا بد أنه كان يفكر بعمق في النهاية وإن كان يعلم علم اليقين من حتميتها، ولكن عندما نفقد من هو قريب جداً منّا نحس بمرارة الفقد أكثر، ونحس أننا نسلك نفس الطريق ويصبح شبح الموت يطاردنا باستمرار، ولا تبتعد صورته من أمام ناظرينا.

حتى وهو مع بعض الأصدقاء الذين لا يزالون يعيشون معه في نفس القرية، والذين شاركوه أيام عز القبيلة وأهلها.

كلما بدأ الحكي يُتَوَقَّعُ منه العودة إلى ذكريات عن القرية، وعن أحداث مرّت بها قد تعود إلى فترة الطفولة، ولا تزال الذاكرة تحتفظ ببعض الصور منها، وإن كانت باهتة لتقادمها، ويحكي أحداثاً أخرى بلغته عن طريق الرواية من والده أو من جده، أو ممن مرّوا بالقرية في تلك الحقبة وهم كثر.

كان يعرف كيف ينسج حكاياته، وهو ينتقل من الواحدة إلى الأخرى من غير أن يستأذن من المتلقي، ومن غير أن يشعره بكونه عرج به إلى قصة أخرى، الحكايات والقصص كلّها مرتبطة مع بعضها البعض جميعها تصب في الرخاء الذي عرفته القرية في الماضي، جميعها تحكي عن بطولات الأجداد والآباء في الدود عن المنطقة والتّصدي للعدو الجائر والتنكيل به، وعدم

السماح له ليطأ أرض القرية التي ظلت عفيفة محافظة على جمالها من أن تطأها أقدام المعمر ويدوسها بنعاله النجسة، ويحكي عن دور الجبال التي كانت الحارس الأمين والحاجز الذي لعب دوره إلى جانب قوة رجالات المنطقة.

هكذا كان يربط بين حكاية وأخرى وتجر في طريقها ثالثة، فكان لا يمل ولا يكل من سرد تلك البطولات يجد فيها ضالته، وتعيد أمام ناظره أيام العز شاخصة أمام ناظره لكن ككل مرة يختم بالحسرة على ما آل إليه حال المنطقة وعلى التفرقة التي عرفها أبناؤها، وعلى التقسيم الجائر الذي لحق بالأرض.

يحكي بشغف عن مواسم الحصاد وعن المحصول الوافر الذي كان يقضي رجالات القرية الصيف في جمعه، وعن تلك الخزائن (المطمورات) التي لا زالت شاهدة على الرخاء الذي عاشته المنطقة فكلما توفّر المحصول فهذا عنوان الخير الوفير، لم يكن يوماً شيئاً أهم في حياة الناس من الخبز؛ فحين تضمن القرية ما يكفيها من الحبوب تعيش في رغد العيش؛ لأنها ضمنت قوت أبنائها ومنعتهم من الحاجة والسؤال والجوع.

ويتحسر على حال تلك (المطمورات) التي أصبح بعضها اليوم في ملك الغرباء؛ لأنها تحولت لهم مع الأرض التي أصبحوا يحتكمون عليها، وكيف أصبح البعض منها اليوم يملأ بماء المطر بعدما قلّ المحصول بسبب تقاعس السواعد عن العمل.

يقول أنّ الأرض هي نفس الأرض، والسماء هي نفس السماء لكن البركة رحلت مع من رحل. هو لا يعترف بتغييرات المناخ.

يقول:

ـ الماء لا يزال يخرج من العين بسخاء، لماذا لا يستعمل في السقي، ينهي حكاياته، ويهم بالوقوف بكل نشاط غير عابئ بسنوات العمر التي بدأت تثقل على ركبتيه وتعمل عملها على عموده الفقري، وعلى جل مفاصله وإن كان لا يشكو من شيء، كما لا يبدو عليه شيء من ذلك.

كان يحلو له البقاء طويلاً إلى جانب صهره الحاج العربي يمشيان معاً في طريق متربة مبتعدين بخطواتهما عن البيت، لأنه كان يرغب في المزيد من الكلام كان يحس أن نهر الذكريات قد بدأ عملية التدفق في ذهنه، ولن يتوقف عن الكلام قبل أن يفرغ ما في جعبته من كلام، ويخرج كل ما جادت به الذاكرة.

ومن بمقدوره أن يوقف سيل الذكريات عندما يتدفق؟ ليس بإمكان أي حاجز مهما كان صلباً أو مرتفعاً من التصدي لقوتها.

يفترقان بعد أن يصلا إلى مفترق الطرق فيكمل الحاج العربي الطريق إلى بيته بينما يلج الحاج عبد الله بيته الكبير الذي عاد إليه من والده تحيط به حديقة غناء ربما هذا ما يخفف عليه وجع ما حلّ بالقرية؛ هو كونه أخذ البيت والحديقة كحصة من الإرث الذي لم يوزع بطريقة عادلة، تعاقبت

الأيادي على العناية بها امتدت من الجد الأكبر إلى جده إلى والده وهي اليوم في حوزته يحاول
أن يجدد أشجارها التي شاخت، ويعمل باستمرار على العناية بتقليمها ونقش أحواضها يردد باستمرار المقولة "زرعوا فأكلنا ولنزع فليأكلون".
تتجدد طاقة الحاج عبد الله على العمل، لكن بين الحين والآخر يتسرب إليه اليأس، ترى من سيتولى العناية بالبيت والأرض من بعده، ولمن ستؤول من بعد رحيله، وربما كان البيت سبب حزنه وتفكيره الدائم لأن في هذه الجدران تسكن تلك الذكريات القابعة في كل الزوايا فأينما ولىّ وجهه تتوغل الذاكرة في الزمان وتعود مسرعة إلى الوراء يتذكر يوم ولادة ابنه المهدي البكر أول فرحته، ويوم عقيقة الثاني، ويوم جاءت سميرة، ويوم ...
الابن الأكبر يسكن المدينة قد يعود يوماً لكن ارتباطه بأبنائه سيمنعه من العودة إلى أحضان القرية وتركهم يواجهون الحياة بعيداً عنه، والابن الأصغر يعيش في المهجر، أحياناً تغزو السعادة ملامح وجهه لتستوطنه فيجدد نشاطه ويسترجع مرحه وعنفوانه، وتجده يبحث عن سميرة في باقي الغرف وهو ينادي عليها بالاسم الذي كان يحلو لوالدتها أن تناديها به (سمورة) يريدها أن تشاركه الكلام، كان يعلم أنها تحب أن تستمع إلى حكاياته، وكان بدوره يرغب أن يسجل على ذاكرتها أشياء قد تمحوها السنين وتصبح باهتة في ذاكرته إذا طال به الزمن، وقد تمحى بشكل كلّي، وليضمن أن هناك سميرة سجل وتاريخ المنطقة، وربما كان يحمّلها بذلك

مسؤولية هي أصغر من حملها، مسؤولية تاريخ قبيلة بكامله لأنها الوحيدة التي ظلت ترافق وحدته في شيخوخته بعدما غادرت كل من سعيدة وإلهام صحبة أزواجهما إلى المدينة لبناء حياتهما كان على سميرة وحدها أن تتحمل ثرثرة والدها التي لا تنتهي.

سميرة حفظت كل الأحداث، ومنها من تذكرها بدورها من جدها، ومنها من وصلتها عن طريق والدتها، هي نفس الوقائع ولكن باختلاف الرواة.

مسكينة سميرة حالها لا يختلف كثيراً عن حال الشجرة التي إلى جانب العين ظلت وحيدة شاهدة على المكان، والأحداث التي مرت بها، وها هي سميرة تشاطرها وحدتها ظلت وحدها لتشهد على الأحداث التي مرّت بالبيت.

سميرة تبدو أحياناً كورقة خريف سئمت من تلاعب الرياح بها وانزوت في ركن تحتمي به؛ إنها تحتمي من ذكرياتها مع والدتها ووسط صخب إخوتها وزميلاتها في المدرسة تحتمي بانغماسها في أشغال البيت وخدمة والدها الذي ترى أنه من واجبها رعايته عملاً بقوله تعالى:

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً...)

هناك الكثير من الأحلام التي رسمناها في خيالنا وعشنا على أمل تحقيقها في يوم من الأيام، ظلت معنا تصاحبنا طول العمر ننتظر بكثير من الأمل وبدون ملل متى تتحقق على أرض الواقع، ولكنها أيضاً أبية وعنيدة مثل الصخر تأبى أن نحققها بسرعة، أو وصولنا إليها دون عناء، ونظل نرقبها من

كل الطرقات والمعابر، ونترقب إقبالها علينا، قد يطول عصيانها وتلبيتها لرغبتنا لكننا لا نستسلم بدورنا نعاند ونجدد كل حين الأمل في إقبالها علينا وهي تتهادى في مشيتها حباً وطواعية.

غالباً ما كانت سميرة بعدما تنتهي من أشغال البيت تجلس في ركن الفناء الكبير ـ الذي يتوسط الغرف والذي كان في السنوات الماضية التي كانت لا تزال فيها طفلة أيام جدها من غير سقف، وكانت غرفه الكثيرة مشتركة بين الأعمام والجد، والغرفة الكبيرة التي تسمى بغرفة الضيوف تعرف زوارا من باقي أفراد العائلة الكبيرة التي لا تنقطع عنها أقدامهم، كان لها باب من خارج البيت وباب آخر من وسط الساحة (الفناء) منه تقدم صحون الأكل. كان الضيوف لا يعبرون وسط البيت، ولا يعرفون ما يدور فيه ـ تستلقي بجسمها المتعب طلباً للقليل من الراحة تأخذها بعيداً عن أحزانها، لكن ما حيلتها وفكرها مشغول كعادته يستعد لرحلة السفر ويربط بين أحداث حديثة وتلك التي بعدت في الزمن لا يترك موضوعاً إلا أَطَلَّ عليه ونبش فيه، وهي تتقلب في مكانها محتارة بين جسمها المتعب وذاكرتها التي تنشط وتمنعنها من الراحة وغالباً ما تجدها تتوسد يدها وقد غابت عيناها عن المكان، ورحلت تقلب في أحداث الماضي وذكرياته البعيدة، كانت تظل شاخصة ببصرها في لا شيء مدة لا يخرجها من صمتها وسرحانها إلا رنين هاتف أو وصول أحد إلى البيت، تتدارك وقتها الموقف وتحاول أن تخفي

شرودها خاصة عن والدها هروباً من أسئلته التي أصبحت تحفظها عن ظهر قلب.

ـ سميرة، أين سرحت يا ابنتي؟

سميرة، ما الذي يشغل بالك؟

سميرة، أنت لا زلت صغيرة على التفكير، اتركي التفكير للكبار.

لا يعلم أن ابنته سميرة كبرت يوم رحلت والدتها، وأنها حلت محلها في كل شيء بالنسبة لباقي إخوانها، وأنها من عليها الاعتناء بهم من بعدها.

لا يعلم أنها لم تعد "سمورة" الصغيرة، وأن الفقد حولها بسرعة إلى امرأة كبيرة.

أجل ليس هناك أصعب من فقد الأم تحس فجأة أنك من غير سند، تحس فجأة أن الدنيا تخلت عنك، وتركتك في مواجهة العالم وحدك، فما عليك إلا أن تستجيب للظروف وتكبر، وتكبر.

تغالط نفسك وتدعي القوة، وأنه بإمكانك مواجهة الموت، لكن هيهات ثم هيهات تصبح ضعيفاً وسريع الانكسار، وصغيراً أمام جبروت الموت تتخلى عن كل شيء دفعة واحدة لتكبر ولا تضعف، بل تريد أن تكون عوناً وسنداً للآخرين.

تتساءل سميرة في أحيان كثيرة:

ـ ترى هل باقي إخوتي يخالجهم نفس الإحساس؟ أم تراني وحدي التي أعيشه؟

ولماذا يفترض أن يحسّوا بما أحسّ به؟ إنهم منشغلون بأسرهم، وبرتابة الحياة وبعيدين عن البيت، وعن القرية، وعن الذكريات، وعن كل ما يربطهم بتلك الروابط التي تفعل فعلتها في النفس، وتترك الحزن يتسرب مع كل نسمة هواء ليستوطن الفكر والروح ويشل التفكير إلا فيه.

وتعود لتقول:

ـ وما أدراني بما يعتمل في أعماقهم، وما يشعرون به، أليست خديجة والدتهم كما هي والدتي؟

ألم يكونوا قطعة منها؟

ألم تحملهم في بطنها كما حملتني؟

وهل كنت أنا أخبرتهم يوما عن حجم حزني من فقدها؟

وهل كانت عندي يوماً تلك الشجاعة لأبوح بكل ما أحسه وأشعر به بسبب فقدها؟

وهل أخبرتهم يوماً عن الهوة العميقة التي حلّت بأعماقي من يوم رحيلها؟

وكيف أعرف ما يشعرون به إذا لم يصرّحوا ويعبروا عن ذلك؟

غريب أمرنا نفرح في صمت، لكن الفرح ينتشر على ملامحنا، وعلى حركاتنا، وتنعكس آثاره على من هم حولنا. والحزن أيضاً نحزن في صمت؛ قد تذبل ملامحنا، وقد تلازم الدمعة أعيننا، وقد تخرج الزفرات بين الحين والآخر تلك التي تثقل على صدورنا لفرط حزننا، لكننا لا نعبر، لا نشتكي، لا نُترجم ما نحس به إلى كلمات، حتى عندما نريد أن نسجل ما مررنا به في

مذكراتنا لا نفصح للورق عن كل شيء، خوفاً من أن تقع بيد الآخر ويفتضح أمر حزننا.

لماذا؟

هل نخاف أن يرثي الآخر لحالنا؟

هل مشاعر الحزن والفرح تدخل في الخصوصيات ولا يحق للآخر الاطلاع عليها؟

ألا يحق لنا التخفيف عما في صدورنا، ونفضي به إلى الآخر ليقاسمنا ما نحس به؟

أهو ضعف فينا؟ أم هي تنشئة وتربية تلقيناها، ولا بد أن نظهر بمظهر القوة حتى لو كان داخلنا عبارة عن أجزاء صغيرة جدا من كثرة الانكسارات؟

هل كان الحزن أو الفرح يوماً عيباً؟

هي أشياء لها علاقة بالأحاسيس والمشاعر، ولا نختلف كثيراً عن بعضنا البعض إلا في قوة كتم ما نحسه، لذلك تجدنا نَصِفُ هذا الشخص بالقوة، والآخر بالضعف.

سميرة لم تكن استثناء غالباً ما كانت تخفي حزنها بابتسامة تحمل السخرية من هذا الواقع أكثر ما تحمل من السعادة، ولكن الذي يعرفها عن قرب يدرك جيداً أنها مجرد قناع للتمويه، ولتبعد المحيطين بها عن وضع تلك الأسئلة التي لا تعرف لها جواباً، ولا تستطيع الإجابة عنها مهما حاولت.

يكون الوجع يمزق داخلها ولا أحد يعلم بحجم معاناتها، أصوات كثيرة تصرخ وبشدة بأعماقها تحاول جاهدة تبين تلك الأصوات لتعرف في الأخير أنها على وشك أن تنفجر، وأنها لن تستطيع الاحتمال أكثر فتجد نفسها تبحث عن كتابها الذي تحس أنه أحسن رفيق لها في وحدتها وتخرج لتمشي قليلاً في الحقل المجاور للبيت، تسير هائمة على وجهها لا تعرف وجهتها، موجهة بقوة خفية في داخلها وتسمح للهواء ليملأ صدرها، وتخرج منه ما يثقل عليه من الزفرات يخف توترها وتجد خطواتها بدأت تسرع وقد تطرد كل تفكير يزيدها وجعاً على ما بها مستمتعة بالهواء العليل وأصوات العصافير من حولها، وقتها تعود أدراجها وتلقي بنفسها تحت ظل شجرة مقابلة لباب البيت، وفتحت كتابها وبدأت البحث عن الصفحة التي توقفت عندها تقرأ في هدوء، ولا تنتبه إلى شيء من حولها تستغرق في قراءتها غير مبالية بما يدور حولها، وفجأة تجدها قد وضعت الكتاب تحت إبطها وبدت خطواتها أكثر خفة من الأول كما لو قامت بحصة للعلاج بين أحضان الطبيعة خارج جدران البيت.

لكن ما إن تلج باب البيت وتلقي بكتابها فوق أول طاولة تصادفها حتى تبدأ في حيرتها وتساؤلاتها؟

كنت دائماً صاحبة رأي يُعْتَدُّ به، وصاحبة قرار، أنا فعلاً لست أكبر إخوتي، لكن الجميع يشهد بقدرتي على اتخاذ القرار، ويعود إليّ للمشورة.

ـ هل فعلاً أخذت مكان والدتي يوم سلمتني مفاتيح البيت واستسلمتْ المسكينة لرحلة المرض؟

هل كان هذا من الأشياء التي تسلمتها أيضاً؟

كوني أصبحت أبحث في أمور الأسرة الصغير منها والكبير، أحل مشاكل هذه، وأصلح ذات البين بين هذا وذاك، وأوزع المحصول بينهم..

الجميع يثق في رأيي، وفي طريقة قسمتي، هم يعلمون بحسن سريرتي، ويعلمون أني أخاف الله في ذلك، والدتي وضعت ثقتها بي يوم أخبرتني أول مرة أن أقوم مكانها بتوزيع المحصول بينهم، حتى أخي الأصغر أترك له نصيبه، وأنا على يقين أنه سيأخذ منه القليل ويترك الباقي، وأحياناً لا يأخذ شيئاً بحجة سفره على متن الطائرة وغير مسموح له بحمل الشيء الكثير، وأيضاً هناك ما هو ممنوع من حمله، فأكون مضطرة بعد ذلك إلى توزيع نصيبه بالتساوي بينهم. والدي لا يهتم بمثل هذه الأمور هو من البداية كان يعتمد في ذلك على والدتي، واليوم يعلم أني تسلمت منها المهمة كما تسلمت أشياء أخرى.

أبي لم يكن يشغل باله شيء قبل اليوم سوى الأرض، ولكن بعدما تأتي الزوجة الثانية (حليمة) لتشاركه حياته لست أدري هل سيظل على حاله أم ينشغل باله بأشياء أخرى؟

أمين الذي أجدني أسامحه اليوم وأفكر في فتح صفحة جديدة معه ألم يتركني بعدما تعلقت به وحلّق عالياً بحجة إكمال دراسته وبناء مستقبل يجمعنا

سواء تحت سقف واحد، لكن ما إن حلقت به الطائرة عالياً حتى نزع من صدره قلباً زعم أنه قد تعلق بي، وطار وراء أحلامه مع ألمانية وترك سميرة محاصرة بين حقول وبيوت قرية ما كانت يوماً بحجم تطلعاتها، ولا كانت يوماً كل أهدافها وأحلامها.

قاومت كثيراً إحساس المهانة الذي خلفه غيابه، وقاومت أكثر مشاعري التي تركها تتدفق تحت تأثير كلامه ووعوده.

وها قد عاد بعد كل الجفاء والهجران هل يعتقد فعلاً أن اندمال الجرح بمثل هذه السهولة؟

وهل المشاعر يضغط عليها بتلك الأزرار التي ألف التعايش معها في المهجر؟

هل بالإمكان أن نوقف تدفقها متى شئنا، ونعيد صبيبها إلى الجريان بضغط على الزر؟

أليست الأحاسيس تسكن الصدور منّا ولا علاقة لها بكل هذا، وسهلة التكسير ويصعب إعادتها كسابق العهد إذا ما أصابها شرخ؟

أجل تبقى الآثار مهما حاولنا ترميم وإصلاح ما حلّ بها من كسور.

هل قلبي رهن إشارة من يده يفتحه متى شاء ويغلقه متى أراد؟

ربما أنسته سنوات الغربة كفاءة سميرة، وقدرتها على تحليل الأشياء، ذلك التحليل المنطقي الذي كان يظل الوقت كله يفكر كيف بعقل فتاة لم تغادر القرية إلا نادراً أن يصل إليه، نسي أو يتناسى حب سميرة للكتاب، وولعها

بالقراءة. حسب أنها رمت بالكتاب عرض الحائط يوم توقفت عن متابعة الدراسة، لم يعلم أنه كان عزاؤها الوحيد، وأنها ظلت تتعلم من تجارب الآخرين، وظلت قراءتها للروايات تمدها بكل تجارب الآخرين.

تفكر سميرة بصوت مرتفع وهي تنظر إلى خزانة ملابسها التي خصصت رفوفاً منها للكتب التي قرأتها، وتضيف:

ـ أجل أمين في الماضي كان يعود إليّ في أمور كثيرة ويستشيرني فيها ويأخذ برأيي، كنت أعلم أني أذكى منه، وأفهم أموراً في الحياة وأخرى في الدّراسة لا يمكن أن يفهمها من غير مساعدتي، لم يجد يوماً حرجاً في السؤال، وكنت بدوري لا أبخل عليه بالإجابة، وأحس بإحساس التفوق يدغدغ أعماقي، ولكن مع ذلك لم أصرح له يوماً بغبائه وقدراتي.

توقفت سميرة فجأة عن تساؤلاتها وعادت إلى نشاطها المعتاد في البيت.

في اليوم التالي كانت سميرة إلى جوار والدها يحتسيان الشاي فقال لها:

ما رأيك يا سميرة لقد دعوت ابن عمتك إلى الغذاء؟

قالها الأب وهو يختلس إليها نظرات كأنه ينتظر ردة فعل قد يقرأ منها شيئاً يثلج صدره.

هذا الأمر لا يعنيني، أجابت سميرة بلهجة هادئة غير مكترثة بالأمر، ولكن ما دمت تسأل رأيي فأنا لا أمانع، وهل ستكون عمتي برفقته؟ لماذا لا ندعوهم جميعاً إلى الغداء؟

فأنا لا أرتاح لمجيئه وحده قد يعتقدون أشياء أخرى.

كانت سميرة على يقين أن والدها كان يرمقها بشكل مريب، لا شك أن ملامحها كانت تكشف بشكل واضح ما يختلج في صدرها، وما تحاول إخفاءه.

فعلا حضر كل من أمين رفقة والديه وبعد تناولنا وجبة الغذاء التي كانت العمة قد تكلفت بإحضارها من بيتها جاهزة، لم تكن تريد أن تتعب سميرة لكنها بدورها أضافت أشياء من صنع يدها إلى الوجبة.

كانت عمتها تلمح بكلامها إلى مستقبل يجمع بين أمين وسميرة والحاج عبد الله يحاول من جهته أن يزكي الفكرة وفي نفس الآن كان يريد من سميرة أن تأخذ قرارها بعيداً عن أي تأثير.

طيلة فترة الغداء كانت تحاول تجاهله لتشعره أنه لم يعد يعني لها شيئاً، وليعلم أن الفتاة التي تركها يوماً ليست ضعيفة بل قادرة على أن تطعنه بطعنات الإهمال، طبعاً عندما تريد المرأة أن تحط من قيمة شخص فهي تستعمل جميع الأسلحة، وفي حالة الحرب كل الأسلحة المحظورة تصبح مباحة والتجاهل أهم سلاح يطعن كرامة الرجل خاصة إذا كان من النوع الذي يحسب أن البنات مستعدة للجري وراءه مادام قد ملأ جيوبه وله أوراق إقامة من بلد غربي.

وبعد انتهاء وجبة الغداء بقيت العمة الى جوار أخيها في البهو بينما الحاج العربي دخل إلى الغرفة لينام قليلاً. استأذنت سميرة من والدها وعمتها للجلوس قليلاً في الحديقة المحيطة بالبيت مع أمين.

فعلاً خرجا معاً إلى الحديقة وجلسا على كرسيين من جدع الشجر كانا متقابلين حاول أمين أن يبدأ الكلام، فقال لها:

أتمنى أن تكوني قد فكرت في أمر ارتباطنا يا سميرة يكفي ما فات من عمرنا.

انتبهت فجأة سميرة على سؤاله المباغت احتارت بماذا يمكن أن تجيب، وجدت أنها لا تزال تحت تأثير تلك المشاعر المشوشة، وهي التي تملي عليها مثل هذه المواقف وخافت من اتخاذ أي قرار قد تندم عليه في المستقبل.

فضلت الهروب للحظات إلى أعماقها تبحث في سجل ذكرياتها عن تلك القطع الصغيرة ربما تجمع منها أشياء جميلة من أيام الدراسة تستطيع أن تمحو بواسطتها البعض من تلك الأخطاء التي ارتكبها في حقها.

لم يكن في مقدورها أن تصوغ كلمات لكي تفتح الباب المغلق بينهما لسنوات، أو تضع سؤالاً معيناً، وما هو السؤال الذي ترى الجواب عنه شافياً لكل جروحها التي لا تزال تفيض في أعماقها. وكيف سوف تضع هذا السؤال وماذا يمكن أن يفهم منه؟ هل تسأل عن سبب رحيله من الأساس؟ أم سبب الجفاء؟ أم سبب العودة؟ أم ماذا؟

إذا لامته على بعاده سيسوقها الحديث حتماً إلى ذكرى رحيل والدتها فلن تقو بعدها على الكلام، لأن هذا حالها كلما جاء ذكرها على لسانها تكون هناك دموع تحول دون أن تقول كل شيء، لم تشأ أن يرى ضعفها وحزنها لكن ما باليد حيلة سوف تتكلم وتبكي إذا لزم الأمر، فلا حيلة ولا قوة لنا

أمام جبروت الموت نكون أكثر ضعفاً نحسُ وقتها أن للدموع دورها الفعال.

انطلقت كلماتها من عقالها، تعاتب مرة وتسأل أخرى، وقد نكس رأسه واستسلم للصمت، وماذا بوسعه قوله تمنتْ وقتها لو فاضت دموعه، ربما كانت قد غفرت له عدم سؤاله عنها، ووجدت مبرراً لذلك وصدقت ما كان ينوي قوله من أعذار. وربما وقتها كانت سوف تحس به أكثر وتحس أنه تألم فعلاً لما حل بها من جراء فراق والدتها لكنها تعود لتقول الرجال لا يبكون والدموع من اختصاص النساء.

صحيح لماذا لا يبكي الرجال؟ هل للأمر علاقة بقدرتهم على التحمل أكثر أم هي القسوة التي تسكن قلوبهم؟ أم رهافة الإحساس التي زرعها الله في قلب الأنثى ولم تزرع في قلب الرجل؟ أم تعود إلى التربية والثقافة المتوارثة؟ نعم غالباً ما نسمع نفس الكلام يتردد على الامتداد الأجيال حين يبكي الصغار تسمع نفس العتاب يوجه له من الكبار: أنت رجل لا تبكي البكاء للأنثى الرجال لا يبكون، تجده المسكين يقاوم ويجفف دموعه كي لا يرى الآخرون دموعه وهكذا...

حاول أمين أن يبرر غيابه ويعيد على مسامعها نفس الأسطوانة التي سمعتها من قبل، توقف عن الكلام لحظة وقالت، في محاولة منها لتغيير الموضوع:

أظن أن الست سنوات التي قضيتها في المهجر لم تؤثر كثيراً على لسانك باستثناء تلك الكلمات التي تقحمها بين الحين والآخر، لا زلت توظف لغتك جيداً عكس الأغلبية الذين ما إن تطأ أقدامهم أرضاً أخرى ولو لأيام معدودة، تجدهم يلوكون بلغة رديئة للبلد الذي هاجروا إليه ويحاولون جاهدين التواصل بها مع أهلهم الذين لا يعرفون غير لغتهم الأم.

أجابها، وقد انشرحت نفسه لهذا الإطراء:

أنت أيضاً لم تدخري جهداً في التعلم رغم ابتعادك عن مجال الدراسة.

التعلم يا أمين يكون من الكتب، ومن الحياة وأنا قد تعلمت منهما معا الشيء الكثير.

لم أكن يوماً مندمجة في حياة القرية ومتتبعة لأخبار أهلها، بعد رحيل والدتي كنت أقضي يومي في خدمة والدي ونظافة البيت وباقي الوقت أقضيه بين صفحات الكتب أغذي فيها عقلي لأظل على علاقة بالمعرفة، ويظل منشغلاً إلى أقصى حد بما أتزود به من معلومات حتى لا يسبقني قطارها. كما كنت ولا أزال مغرمة بقراءة الروايات وكثيراً ما أجد نفسي في إحدى بطلات رواية وغالباً ما أسبح أفكر في حياتي الخاصة وأتشوق لمعرفة النهاية لأطمئن على البطلة وأنا في الأساس أريد الاطمئنان على مستقبلي.

ابتسم أمين تشجيعاً لها لتفصح أكثر عن الأشياء التي تعلمتها طيلة فترة غيابه، ولكيلا تعود إلى لومه وعتابه وخوفاً من أن تسأله عن تفاصيل تلك السنوات التي كان فيها بعيداً.

بدورها لم تكن ترغب في معرفة تفاصيل الست سنوات، وكيف قضاها في ذلك البلد، ولم تكن مستعدة لسماع تلك الأعذار التي قد تكون من نسج خياله، والتي قد يصرح بها ضمنياً خلال حديثه لتفهم وتقدر الصعوبات التي اعترضت حياته هناك.

كانت تحاول أن ترسل له رسالة أنه خلال مدة غيابه كان قد أصبح خارج أسوار قلبها بل حياتها جملة، وأصبح مجرد فرد من أفراد العائلة الكبيرة لم يعد يهمها شأنه ولا علاقة لها بحياته الخاصة؛ لأن أي ثقب فتحته ممكن أن يتخذه سبيلاً ويتمكن من الولوج منه من جديد ويحشر نفسه في حياتها وسوف تجد نفسها مرغمة على التفكير فيه ولو من باب كونه فرداً من العائلة ويهمها أمره وهذا من شأنه أن يقلب حياتها رأساً على عقب، وهي التي كانت تحسب أنها بدأت تبني حياة خاصة بها في منأى عن عواطفها التي تركتها جانباً منذ تخليه عنها.

لطالما قيل عنها أنها صاحبة المواقف الصعبة وتقف مواقف الرجال، وإن كانت تكره هذا الوصف وتعتبر إهانة لها كأنثى وتقليل من شأنها، وأن القوة بيد الرجل فقط.

كانت تتعامل مع المواقف بنوع من الرزانة ورباطة الجأش، وتجدها تبحث عن الحلول بدقة متناهية كأنها تحلل مسألة في غاية التعقيد، أو تحل معادلة رياضية كل هذا يجعل القريب منها يعجب بشخصيتها ويمتدح في رأيها، لم تكن تعبأ بكل ما يقال في شأن ذكائها وقدرتها كانت تعلم أن

الآخر لا همّ له إلا مصلحته الشخصية التي يراها فوق أي اعتبار وعليها وحدها أن تضحي من أجله.

حتى والدها كان ينعتها بأعقل إخوتها مع أنها لم تكن الأكبر سناً، ومع ذلك أخذت هذا اللقب وأي تصرف منها كانت تعيد مراجعته قبل أن تفعله لأنها اختارت أن تحافظ على ما كانت تنعت به.

مشكلة سميرة أنها حنونة أكثر من اللازم، ولكنها لا تبوح بحبها ولا تعبر عن مشاعرها؛ قد تتصرف بواقعية أكثر تجدها ترعى كل إخوتها ومصالحهم وأولادهم ووالدها ووالدتها قبل رحيلها لكن بجدية أكبر، مشاعرها لا ترى بل تحسها في تصرفاتها، كانت تجيد دور الفتاة القوية الجدية التي تتحمل الصعاب مما يجعل الجميع يشهد لها بذلك ويثني عليها، لكنهم نسوا أنها إنسانة قبل كل شيء ولها مشاعرها ولها طاقة التحمل وقد تضعف وقد تخذلها لسبب من الأسباب.

لكنها المسكينة كانت تشتكي في صمتها الطويل، في نظراتها الحزينة في انفعالها أحياناً دون سابق إنذار.

كانت الحياة في القرية شبيهة بحياة كل القرى تنام باكراً مع غروب آخر خيط ضوء له صلة بقرص الشمس، ومع أول خيط ضوء تدب الحياة في شراييننا من جديد، تبدأ أصوات العصافير تعزف باختلاف أنغامها، ومواء القطط، ونباح الكلاب الذي فقد قوته لكثرة النباح ليلاً، وخرير المياه الذي يسمع بوضوح مع هدأة الفجر كأنه عاد للانسياب بعد انقشاع الضوء و...

لكن الأجمل من كل هذا لا وجود لأصوات محرك السيارات، ولا لتلك الشاحنات التي تقلق راحة الناس في المدينة، قد يصلك أحياناً صوت لعربات تجرها البغال يحمل عليها أهل القرية أشياءهم لنقلها إلى الحقول أو أصوات حوافر الدواب ..

****

تعود أمين من جديد على زيارة بيت خاله، وكان يشجعه على مثل هذه الزيارات لأنها قد تذيب الجليد عن قلب سميرة وتقرب بينهما من جديد.
مرة قال لها وهما يمشيان جنباً إلى جنب في حديقة البيت، بعدما تركا والدها مع صينية الشاي لوحده في محاولة منه لإعادة المياه إلى مجاريها:
عندما كنت يا سميرة على متن الطائرة إلى البلد الآخر كان إحساس يغمرني وكأني أحلق عالياً في هواك، وأني أفعل كل شيء من أجلك أنت ومن أجل أن أحقق لك أنت وحدك كل أحلامك.
عقبت:
ـ وماذا بعدما انتهت فترة التحليق ووطئت أقدامك الأرض الأخرى؟ أظنك بعدما لمست أقدامك أرض الواقع وعرفت أن هناك مسافة تفصلك عني وجدت أنها كافية لإهمالي ونسياني إلى حين عودتك، أم تراك انتزعتني من تفكيرك بشكل نهائي ونسيت الصلة التي كانت تربطك بي حتى علاقة القرابة نسيتها ولم يعد أمامك إلا نفسك وأحلامك؟ نسيتني للأسف عند أول شقراء اعترضت طريقك وهن كثر.
ـ كلا والله كنت معي تملئين عليّ حياتي أفكر فيك باستمرار لم يشغلني عنك سوى الركض وراء لقمة العيش، لقد كنت رفيقتي طيلة فترة غربتي في يقظتي ومنامي.
أجابت بنوع من الاستهزاء:

ـ وتريدني أن أصدقك اليوم؟ تعتقد أنك بسخافتك هذه تستطيع التأثير علي وأسر قلبي من جديد والتمكن من مفتاحه، كلا يا ابن عمتي، و يا من حسبتك يوماً رفيق دربي، إذا كنت قد زعمت أنك حلقت عالياً في هواي فأنا قد بقيت طول فترة غيابك أحلق في أجواء من الوحدة والحزن ليس بسبب غيابك ولكن بسبب الظروف التي مرت بها أسرتي الصغيرة، أحلق طول الوقت في سماء ملأها الضباب.

أرى مستقبلاً غامضاً أينما وليت وجهي استقبلتني رياح عاتية، وتلك الظلمة التي تمتد بعيداً في الأفق ولم أجد منفذاً للخروج منها.

واليوم تعود محملاً بكل العواصف والرعود تحاول أن تثير تلك الزوبعة الراكدة في أعماقي من جديد، ليكن في علمك أن أعماقي قد ترسب فيها الكثير وليس من الهين اقتلاع ما ترسب فيها من حزن وهم بالإضافة إلى كأس الخذلان التي تجرعتها طوال السنوات المنصرمة.

عاد أمين إلى بيته، وقد اطمئن قلبه لما لمسه من كلام سميرة من حنين إلى الماضي وفتح تلك الدفاتر من جديد، رغم العتاب الذي لا تتوقف عنه، إلا أنه مؤشر لعودة الحياة بينهما كسابق العهد عندما تعاتب المرأة معنى ذلك أنها تحب من تعاتبه، وتطمح أن يصلح حاله لتستمر الحياة بينهما وتورق أوراقها من جديد.

جاء الليل، وحلّ معه الأرق تقلبت سميرة في فراشها ساعات طوال تقلب الموضوع، وتقلب صفحات الماضي وتتوقف عند كل واحدة كانت الذكريات تقض مضجعها والأسئلة تتناسل بدورها دون توقف.

ترى هل توافق على أمين وتقبل بأعذاره؟

ترى هل تستجيب لطلب والدها ورغبة قلبها متجاهلة كل الأذى الذي سببه لها وتعيش إلى جواره في سلام بقية أيام عمرها؟

وماذا لو اكتشفت أن كل همه هو ما سيؤول له من أرض بعد رحيل والدها بعد عمر طويل؟

وتعود للقول:

هو اليوم يمتلك رصيداً في البنك، وله شهادة تضمن له عملاً جيداً، وسيارة فخمة.. فلا يمكن الجزم أنه عاد إليها من أجل نصيبها في الأرض، وما أدراها بحقيقة مشاعره؟

قد يكون صادقاً في كل ما قاله، لماذا إذاً تضيّع عليها فرصة كهذه على الأقل هو ابن عمتها وتعرفه منذ طفولتها. تعود لتفكر فيما يمكن أن يفكر فيه أهل القرية وكونها رفضت كل من تقدم إليها لأنها كانت تنتظر عودته.

تخرج عن صمتها، وتقول بصوت مسموع منها:

وماذا لو كان الأمر صحيحاً، أنا لم أرتكب جرماً هو قدري فلماذا لا أنتظره؟

لم تنتبه إلا ومؤذن المسجد القريب منهم يرفع صوته بآذان الفجر استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وقامت للصلاة.

كان والدها قد سبقها لذلك كما هي عادته.

****

في الصباح بعد وجبة الفطور التي كانت متأخرة نوعاً ما عن باقي الأيام الأخرى ربما لكونها لم تنم فترة كافية مما جعلها تقوم متكاسلة لتحضير طعام الإفطار، والدها بدوره كان قد عاد من جولته في الحقول وجلس في مكانه المعهود ينتظر في صبر تام.

حاولت الانسحاب من جواره لتبدأ بقية أشغال البيت كما هو الحال كل يوم.

سمعته يأمرها بالبقاء قليلاً إلى جواره، عادت للجلوس من جديد، وقلبها يحدثها أن في جعبته كلاماً يريد أن يفضي به إليها.

أخرجها من حيرة الانتظار، وقال دون مقدمات ما رأيك في طلب عمتك بشأن ارتباطك بأمين لا زلت أنتظر قرارك؟

حاولت بشتى الطرق أن ترفض لكنها فشلت كأنها فقدت صوتها أمام رغبة مدفونة في أعماقها كانت لا تزال تشدها إليه رغم كل ما فعله معها.

فقال والدها مبتسماً:

السكوت علامة الرضا.

استمر صمتها واستمرت حيرتها من أمرها وجدت نفسها تقف عاجزة ولا تقوى على رفضه بشكل صريح.

مر كل شيء سريعاً ربما والدها كان يسرع بدوره لتأتي حليمة للبيت، ولا تتألم سميرة بوجودها.

بدأت الاستعدادات لحفل الزفاف لم تكن تعرف بعد هل من حقها أن تفرح بنصيبها؟

أمين من جهته لم يدخر جهداً حمل لها كل الأشياء التي كان قد عاد بها من المهجر، ولم يجرؤ على تقديمها لها من قبل، كما كانت عمتها أكثر سخاء معها وأعطتها ما تبقي في حوزتها من حلي من أيام شبابها، وعندما حاولت سميرة الامتناع عن أخذها قالت لها العمة:

أنت أفضل جوهرة أحملها إلى بيتي فهذا أقل ما أقدمه لك.

حضر جميع إخوتها عرسها، حتى حمزة جاء من المهجر ليزف أخته، لكن سميرة ظلت تتطلع بقلب مكسور وعين دامعة إلى غياب والدتها عن الحفل.

دمعت عيناها على فراق بيتها الذي عاشت بين أركانه كل عمرها الماضي، وهي التي كانت تحلم باليوم الذي يصبح لها بيتاً مستقلاً مع فارس أحلامها.

قالت بصوتٍ هامس:

ـ لست أدري هل كنت أبكي ذكرياتي التي سوف أتركها مبعثرة في أرجاء البيت، وقد تتلاعب بها أياد غريبة في غيابي؟ أم هي دموع الفرح اختلطت بدموع الفراق؟

تدافعت الذكريات دفعة واحدة إلى قمة رأسها، وانهمرت الدموع كشلال لم يشأ أن يتوقف دفنت وجهها بين يديها وارتفع صوتها بالبكاء أسرع والدها إليها لأنه كان يراقب حركاتها وسكناتها بينما الجميع منشغل بنفسه

وبالحديث مع من يوجد إلى جواره ضمها إليه أحست بعدها براحة وكأنها أخيراً وجدت صدراً تشكي له همها بعد والدتها.

رفعت سميرة رأسها لترى دمعة طفرت من جفن والدها، لم ترَ من قبل دمعته كانت تحكي عنه والدتها أنه بكى بحرقة يوم عاد من السفر ووجد والدته قد فارقت الحياة وينتظرون حضوره لدفنها من يومها لم يذرف دمعة واحدة.

كان يتجلد في كل المواقف الصعبة التي مر منها، شأنه في ذلك شأن كل الرجال يتظاهرون بالقوة وهم أضعف من ذلك، تعلم أنه بكى لفراق والدتها لكنه لم يظهر أمام أبنائه إلا راضياً بقضاء الله وقدره ليساعدهم على الصبر والتحمل.

لكن اليوم وهو يراها تزف إلى بيت أمين ابن عمتها رأت دمعته فحز في نفسها تركه، لكنها كلما تذكرت أن امرأة أخرى ستدخل البيت في الأيام القادمة تعود لتطمئن عليه.

أسرع المهدي إلى جوار أخته لا يريد مزيداً من الدموع وأمسك بيدها ليسلمها لعريسها الذي كان ينتظر بشوق متى تهل عليه.

لكن سميرة انسلت من يد أخيها المهدي بعدما كان على وشك أن يسلمها إلى عريسها، وعادت مسرعة إلى البيت من جديد وبدأت تطوف على الغرف واحدة، واحدة وكأنها تودعها أو تلتقط لها صوراً لتحتفظ بها في ذاكرتها

قبل أن تمس يد غريبة باقي الأشياء في البيت وترتبها بطريقتها وكما يحلو لها.

شعرت المسكينة بحزن مشوب بنوع من اليأس تقلص حجم الدنيا دفعة واحدة في عينيها حتى عادت كل الدنيا تتلخص في البيت الذي تغادره إلى بيت المستقبل الذي انتظرته طويلاً.

عادت بعد ذلك إلى جوار أخيها الذي بقي في مكانه ينتظر عودتها.

كان أمين محاطاً بمجموعة من شباب القرية ببذلة العرس، والفرحة تنط من عينيه تقدم منها سلمه المهدي عروسه، وهمس له قائلاً:

حافظ عليها فهي كنز العائلة وقرة أعيننا جميعاً.

أجاب أمين:

سأضعها داخل عيوني وأغلق عليها رموشي.

ابتسمت سميرة، وهي تنظر في حياء إلى أخيها، ركبت السيارة إلى جانب أمين، وانطلقت بهما تشق رحم الظلام وصدى الزغاريد يتردد في الأجواء.

تمت بحمد الله

ظلال الخذلان

رواية

آمنة برواضي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com